معارج الحفظ والتدبّر

(أيسر الوسائل لحفظ القرآن الكريم وتدبُّره)

ناصر بن سليمان العمر

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

ح ناصر بن سليمان العمر، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمر، ناصر بن سليمان
التبيان لتيسير حفظ وتدبر القرآن/ ناصر بن سليمان العمر –
الرياض، ١٤٣٥هـ
ص ؛ ١٧ × ٢٤سم
ردمك:
١
أ العنوان
ديوي:

رقم الإيداع:
ردمك:

مؤسسة ديوان المسلم
ص.ب ٩٣٤٠٤ الرياض ١١٦٨٤
هاتف: ٠١١٢٥٤٩٩٩٣ – فاكس: ٠١١٢٥٤٩٩٩٦

الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ ٢٠١٤م

البريد الإلكتروني: nn@almoslim.net

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمدَ لله، نَحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله، وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسوله، صلّى الله عليه و على آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فمنذُ عشرات السنين، وأنا ألحظُ إجماعَ الناس على البحث عن السَّعادة، ولكنَّ القليلَ منهم من يُوفَّق لسلوك طريقها، فكانت من أُولى محاضراتي قبل قرابة ثلاثين عامًا: (السَّعادة بين الوهم والحقيقة)، ثمَّ مع تعاقب السنين، وجدتُ أنَّ سرّ السعادة الحقيقية هو في القرآن الكريم، ومفتاحه (التدبر).

تأمَّل معي أيُّها المبارك: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه] فهل وقفتَ عندها متدبِّراً؟

وخلاصةُ فهمي لها: أنه لن يشقَى مَن معه القرآن، وفي آخر السورة ما يؤكِّد ذلك ويبيّن سرّ السعادة والشقاوة: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ

تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ [طه]، والإعراضُ عن القرآن هو إعراضٌ عن ذكر الرَّحمن، وأعظم الهدى هو القرآن، وآية الإسراء توضح هذه الحقيقة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء].

ويستمرُّ القرآنُ يرسم لنا طريق الخلاص من المرض والشَّقاء، حيث نجد أن سورة الإسراء التي بينت أنَّ القرآن هو مصدر الهداية، تبيّن لنا أيضاً أنَّ القرآن ذاته هو الكاشف عمَّا يحل بالمؤمن من شقاء وعنت:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أما المعرضون عن الاستشفاء به فجزاؤهم: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[الإسراء] .

ولما كان القرآن الكريم هو الشفاء لأمراض القلوب والأبدان ودوائها كانت السعادة كلَّ السعادة في العيش مع كتاب الله تعالى تلاوةً وتدبّرًا وعملاً، مصداقاً لقول المصطفى ﷺ : «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله...»(١).

---

(١) عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خطب الناس في حجة الوداع فقال : قد يئس الشيطان بأن يعبد بأرضكم و لكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم فاحذروا يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا : كتاب الله و سنة نبيه. إن كل مسلم

وقد رأيتُ والحمد لله نتائج باهرة عظيمة لهذا المنهج، وأعتبر هذا توفيقاً من الله تعالى لي ولإخواني العاملين في الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، حيث لا أُحصي من يشكر على التوجيه لهذا الدواء الشافي بعد أن ضلَّ سنين عدداً في بلاء وتعاسة، استخدم خلالها أنواعاً من العلاجات الحسية والمعنوية التي لم تحقق له مراده ولم تجلب له السعادة.

وإنْ ادَّعى مدَّعٍ أنه قد استعمل هذا الدواء (دواء العلاج بالقرآن من خلال التدبر)، ولم يتحقق له الشفاء القلبيُّ أو الحسيُّ، -وشفاء القلب أعظم من شفاء البدن- فليعلم أنه لم يستعمله على وجهه الصحيح، أو أنَّ هناك موانع حالت بينه وبين تحقق ذلك، ولبّ الشفاء هو الحمد والرضى، ولو بقي ظاهرُ البلاء.

أخ المسلم، المسلمون إخوة، و لا يحل لامرىء من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، و لا تظلموا و لا ترجعوا من بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض".

رواه الحاكم وصححه(١/ ١٧١)، تعليق الذهبي قي التلخيص: احتج البخاري بعكرمة واحتج مسلم بأبي أويس عبدالله وله أصل في الصحيح، كما في حديث جابر في مسلم. (٢/ ٨٨٦) ح/ ١٢١٨.

ورواه مالك في موطئه مرسلا: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه)، قلت: وأصل الحديث عند مسلم وأبي داود وابن ماجه بدون لفظة: (وسنتي) أو (وسنة نبيه "). وفي سنن الترمذي: لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي.

فكلام الله حق ووعده صدق ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه]، والخطوة الأولى أن يكون القرآن في قلبك، وليس على طرف لسانك ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد]، فالمنافقون يتلون القرآن بألسنتهم، لكن لا يتدبرونه بقلوبهم، لذلك لا ينتفعون به.

آمل أن تجد أخي في هذه الصفحات ما يدلّك على الإيمان والهداية والسعادة والرحمة، وتتخلص وتنجو مما يعترضك من الغمِّ والضنك والشقاء، كما نجا يونس عليه السلام ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ [الأنبياء]، حيث أكرمنا سبحانه وتعالى بأن هذا ليس خاصاً لذي النون، بل لكلِّ من أصابه الغم فاستشفى بعلاج يونس: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء]، فيا طولَ حسرة الغافلين:

كالعيسِ في البيداء يقتلها الظمأ والماءُ فوق ظهورها محمول

وهذه الرسالة جزء من هذا المشروع المبارك (تدبُّر)، المشروع الطموح الذي من أجله أُنشئت (الهيئة العالمية لتدبر القرآن)، وهي اختصار وتهذيب لكتابي **(أفلا يتدبرون القرآن)** مع إضافات مهمة، وقد أسميت هذه الرسالة

(معارج الحفظ والتدبر)، وهي تجيب على كثير من الأسئلة التي توجه لي وللإخوة في (تدبر) حول الأسلوب الأمثل لتدبر القرآن، وثمار التدبر، والموانع التي تحول دون تحقيق هذه الغاية العظيمة، كما أن فيها بيانًا للطريقة التي تيسر حفظ القرآن وإتقانه، نظرًا لقوة العلاقة بين التدبر والحفظ، وأثر كل منهما على الآخر.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الصدق والإخلاص، وحسن القول والعمل، وأن يبارك في هذا المشروع الذي هو مشروع الأمة جمعاء، وأن يجزي خير الجزاء كل من ساهم في هذا المشروع بأيِّ جهد حسي أو معنوي، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وهل صلح أولها إلا بالكتاب والسنة تدبرًا وعملًا، وأسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته.

كما أشكر كلَّ من أثرى هذه الرسالة بإضافةٍ أو فائدة أوملحوظة، أو ساهم في إخراجها، وأستغفر ربي من كل خطأ وتقصير.

والحمدلله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وآله وصحبه.

وكتب: ناصر بن سليمان العمر

رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

الأحد ٢٤/ ٠٨/ ١٤٣٥

naser@almoslim.net

مدخل:

سأقدم بمقدمات مختصرة مهمة بين يدي الحديث عن حفظ القرآن وتدبره، إذ إن هذه المقدمات لها ارتباط وثيق في تيسير حفظ القرآن وتدبره والعمل به، وهي مدخل وقاعدة وأساس لتحقيق ذلك لمن عزم على حفظ القرآن وتدبره.

المقدمة الأولى: حقيقةُ الإيمان:

الإيمان هو الحياة الحقيقيةُ للإنسان، وبالمقابل فالكفر هو الموتُ الحقيقيُّ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، ولقد وصفَ القرآنُ الذين عاشوا على غير هديه بالموتى والعُمي، مع أنهم يأكلون ويشربون ويروحون ويغدون، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النَّمل].

وقد وقف ابن القيم رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال]، ليقرِّر: «أنَّ الحياة النافعة إنما تحصُل بالاستجابة

لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياةٌ بهيميَّة مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياةُ من استجاب لله والرَّسول ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياءُ وإن ماتوا، وغيرُهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان.

ولهذا كان أكملُ الناس حياةً أكملَهم استجابة لدعوة الرَّسولﷺ، لأنَّ ما دعا إليه فيه الحياة، فمن فاته جزءٌ منه فاته جزءٌ من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرَّسول»[1].

ثمّ وضح ذلك بقوله:

«والإنسان مضطرٌّ إلى نوعين من الحياة: حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضارَّ، ويُؤثِرُ ما ينفعه على ما يضرُّه، ومتى نقصت فيه هذه الحياةُ ناله من الألم والضعف بحسب ذلك، ولذلك كانت حياةُ المريض والمحزون وصاحب الهمِّ والغمِّ والخوف والفقر والذُّل دون حياةِ من هو مُعافى من ذلك. وحياةُ قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل والغيِّ والرَّشاد والهوى والضلال، فيختار الحقَّ على ضده، فتُفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال، وتفيده قوة الإيمان والإرادة

(١) الفوائد: ص ٨٨.

والحبِّ للحق، وقوة البغض والكراهة للباطل، فشعوره وتمييزه وحبُّه ونِفرتُه بحسب نصيبه من هذه الحياة»[1].

المقدمة الثانية: حقيقة القرآن:

ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «كتابُ الله، حبلٌ ممدودٌ من السَّماء إلى الأرض»[2]، وفي حديثٍ آخر عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَبْشِرُوا وَأَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا»[3]. ونظر بعضُ العلماء إلى القرآن من ناحية طرفه الذي بيد النّاس، فعرّفوه بأنه: «اللفظ المنزل على النبي ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس»[4]، وعرّفه

(١) الفوائد: ص ٨٩.

(٢) رواه الترمذي عن زيد بن أرقم ﷺ بلفظ" إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما" (٥/ ٦٣٣) ح (٣٧٨٨)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: صحيح.(٢٦٠)، وجاء أيضا في مسند الإمام أحمد (١٧/ ١٧٠).

(٣) صحيح ابن حبان(١/ ٣٢٩).

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ١٩.

آخرون بأنّه: «الكلام المعجز، المنزل على النبي، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته»[١] وأنت ترى أن هذا التعريف جمعَ بين: الإعجاز، والتنزيل على النبي ﷺ، والكتابة في المصاحف، والنقل بالتواتر، والتعبد بالتلاوة، وهي الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم»[٢].

والقرآن هو الروح ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾[الشورى: ٥٢]، وأيُّ بدن بدون روح فهو جثة يجب أن يبادر إلى مواراتها في التراب.

المقدمة الثالثة: العلاقة بين الإيمان والقرآن:

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة[٣]، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا[٤].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ١٩.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ١٩.

(٣) جمع حَزْور وحَزَّور، وهو الذي قارب البلوغ، والتاء لتأنيث الجمع. النهاية في غريب الحديث(١/ ٣٨٠).

(٤)أخرجه ابن ماجه وغيره، قال في مصباح الزجاجة (١/ ٢): هذا اسنادٌ صحيح رجاله ثقات.

وعن عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما-قال: «لقد عشنا برهة من دهرنا، وإنّ أَحْدَثَنا يُؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمدﷺ فيُتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يُوقف عنده فيها كما تعلمون أنتم القرآن ، لقد رأيت رجالا يُؤتى أحدهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمِره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يُوقف عنده منه، ينثره نثر الدقل» [1].

علمنا أنّ الإيمان بالنسبة للإنسان هو حياته الحقيقية، هو روحُه. ورأينا كذلك أنّ القرآن نورٌ يُفيضُه الله عزّ وجلّ على قلب عبده، عندَ تلاوته للقرآن بخشوع وفهم وتدبر.

وكلاهما: الإيمان والقرآن، لا بدّ منهما للإنسان، لا يمكن الاستغناء عن أحدهما بحالٍ من الأحوال، ولكن الإيمان سابق للقرآن كما ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم.

وللإنسان من حيثُ اجتماع صفتي الإيمان وتلاوة القرآن أربعة أحوال: روى الإمام البخاريُّ في صحيحه، عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ:

(١)أخرجه الحاكم في مستدركه١/ ٩١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علـة، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

«مثل الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ، كَالْأُتْرُجَّةِ: طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ، كَالتَّمْرَةِ: طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَالرَّيْحَانَةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَالْحَنْظَلَةِ: طَعْمُهَا مُرٌّ أَوْ خَبِيثٌ، وَرِيحُهَا مُرٌّ»(١)!

فالحال الأولى، يجتمع فيها الإيمان والقرآن، تشمُّ رائحةً طيّبة، ثمّ تذوق الطّعم فتجده كذلك طيباً، ومثاله هو (الأُتْرُجَّة)!

وفي الحال الثانية، يحضر الإيمان ويغيب القرآن، فلا تشمّ رائحةً طيّبةً، ولكنّك إذا ذقت الطعمَ ألفيتَه طيّباً، ومثاله هو (التّمرة).

وفي الحال الثالثة، يغيبُ الإيمان، ويحضر القرآن، فتشمُّ رائحةً طيّبةً، ولكنّك إذا جرّبتَ وذُقتَ؛ لم تجد طعماً طيّباً، ومثالُه هو (الرَّيحانة).

وفي الحال الرابعة، غابا معاً: الإيمان والقرآن، فرائحةٌ خبيثةٌ وطعمٌ مرٌّ، ومثاله (الحنظلة).

(١) متّفق عليه: البخاري (٥٠٥٩) ومسلم (٧٩٧).

إذن، فينبغي على المسلم، أن يُقبل على القرآن، بكلِّ صدقٍ وطمأنينة ويقينٍ، واثقاً ممّا سيُفيضه الله عليه من رَوحه ورحمته، عند إمساكه بطرف الحبل الّذي يليه من القرآن، أي عند تلاوته.

فالإيمان حياةُ الإنسان الحقيقيّة التي يتميّز بها عن الحيوان، والقرآنُ هو روحُ هذه الحياة الإنسانيّة.

أو بعبارةٍ أخرى، للإنسان حياتان:

الحياة الأولى، تكون بنفخ الرّسول الملَكيِّ، وقبلها يكون من جملة الأموات، وحقيقتُها هي الإيمانُ بالله عزّ وجلّ، وإلا فهو مثلُ سائر البهائم.

الحياة الثّانية، وتكون بنفخ الرّسول البشريِّ، أي بالقرآن والوحي، وهي حياة القلب؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، فجمع بين الحياتين: الحياة الإنسانية غير الحيوانية، والحياة الروحية القرآنية [١]، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم ص: ٩٠.

[الأنفال: ٢٤]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢]

وهذه قصةٌ جميلة أوردها ابنُ الجوزيِّ رحمه الله، تدلُّ على تأثُّر من يسمع القرآن، ولو لم يفهم معناه، قال رحمه الله: «بلغنا عن عبد الواحد بن زيد، أنَّه قال: ركبنا في مركبٍ فطرحتنا الريحُ إلى جزيرةٍ، فإذا فيها رجلٌ يعبد صنماً، فقلنا له: من تعبد؟ فأومأ إلى الصنم، فقلنا: إنَّ معنا في المركب من يُسوِّي مثل هذا، ليس هذا بإله يُعبد! قال: فأنتم لمن تعبدون؟ قلنا: الله عز وجلّ! قال: وما الله؟ قلنا: الَّذي في السماء عرشُه وفي الأرض سلطانه وفى الأحياء والأموات قضاؤه! فقال: كيف علمتم به؟ قلنا: وجه هذا الملكُ إلينا رسولاً كريماً؛ فأخبرنا بذلك، قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: لما أدى الرسالة قبضه الله! قال: فما ترك عندكم علامةً؟ قلنا: بلى! ترك عندنا كتاب الملك! قال: أروني كتاب الملك فينبغي أن تكون كتبُ الملوك حِساناً، فأتيناه بالمصحف، فقال: ما أعرف هذا؟ فقرأنا عليه سورةً من القرآن؟ فلم نزل نقرأ ويبكى! حتى ختمنا السورة، فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يُعصى! ثمَّ أسلم وحملناه معنا، وعلَّمناه شرائع الإسلام، وسُوراً من القرآن فلما جنَّ علينا الليل وصلينا العشاء، أخذنا مضاجعنا، فقال لنا: يا قومُ، هذا الإله الذي دللتموني

عليه، إذا جنَّ عليه الليلُ ينام؟ قلنا: لا يا عبد الله، هو عظيم قيُّوم لا ينام! قال: بئس العبيد أنتم، تنامون ومولاكم لا ينام! فأعجبنا كلامُه، فلما قدمنا عبادان قلت لأصحابي: هذا قريبُ عهد بالإسلام، فجمعنا له دراهم وأعطيناه، فقال: ما هذه؟ قلنا: تنفقها! قال: لا إله إلا الله دللتموني على طريقٍ ما سلكتموها! أنا كنتُ فى جزائر البحر أعبد صنماً، فلم يضيعني وأنا لا أعرفه! فكيف يُضيِّعني الآن وأنا أعرفه! فلما كان بعد ثلاثة أيام قيل لي: إنه في الموت، فأتيته فقلت: هل من حاجة؟ فقال: قضى حوائجي من جاء بكم إلى جزيرتي! قال عبد الواحد: فحملتني عيني فنمت عنده، فرأيت مقابر عبادان روضةً وفيها قبة، وفى القبة سريرٌ عليه جارية لم نرَ أحسن منها، فقالت: سألتُك بالله إلا ما عجلت به، فقد اشتدَّ شوقي إليه، فانتبهت فإذا به قد فارق الدنيا فغسلتُه وكفنتُه، وواريتُه فلما جنَّ الليل نمت فرأيتُه فى القبة مع الجارية، وهو يقرأ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد]»[1].

وما أجملَ وصفَ الزركشيِّ رحمه الله للقرآن بقوله: «أندى على الأكباد من قطر الندى، وألذُّ في الأجفان من سِنة الكرى، يملأ القلوب بشراً، ويبعث

(١) صفة الصفوة: ٤/ ٣٦٩.

القرائح عبيراً ونشراً، يُحيي القلوب بأوراده، ولهذا سمَّاه الله رُوحاً، فقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، فسماه روحاً؛ لأنه يودي إلى حياة الأبد، ولولا الروح لمات الجسد، فجعل هذا الروح سبباً للاقتدار، وعلماً على الاعتبار»[١].

المقدمة الرابعة: فيما يجب على المؤمن تجاه القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم هو حبلُ اللهِ المتين، من اعتصم به نجا، وقد أنزلهُ الله تعالى هدى وبشرى للمؤمنين، يتلونه حق تلاوته، ويعملون بما فيه، ويقومون به ابتداءً من تعظيمه وتوقيره، كونَه كلامَ الله عزّ وجلّ.

وعليه؛ يُمكننا حصرُ ما يجبُ على المسلم أن يقومَ به، نحو القرآن الكريم، في ثلاثة أمورٍ رئيسة، تتعلق بها فروع تُعدُّ ولا تحصى:

الأمر الأول: وجوب تعظيم القرآن الكريم، إيمانًا بأنه كلام الله لفظًا ومعنى.

الأمر الثّاني: وجوب تلاوة القرآن الكريم وتدبُّره.

الأمر الثّالث: وجوب إقامة حدود القرآن الكريم والعمل به.

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٥.

وعندئذٍ ينالُ المسلم ثمراتِ تدبّره للقرآن الكريم، وتبدو على حياته آثاره.

وهذا التّحديد والتّرتيب لواجباتنا إزاء القرآن الكريم، يجيء متسقًا مع خبرة الإنسان في هذه الحياة، فأنت –ولله المثل الأعلى– لو جاءتك رسالةٌ من إنسانٍ تُحبُّه، تجيش بصدرك مشاعر الاحترام والمحبَّة لهذا الإنسان، وينعكس ذلك منك على الرِّسالة التي تلقّيتها منه، ومن ثَمَّ تقرؤها بكل تدبُّرٍ واهتمام؛ لتعرف ما يُريده منك، لتسعى بعدها جُهدَك في سبيل تلبية رغباتِه وأوامره، وقد ورد عن الحسن البصريّ ما يؤكّد هذا المعنى، إذ يقول: «إنّ من كَان قبلكم رأوا القُرآن رسائلَ من ربهم؛ فكانوا يتدبَّرونها بالليل، وينفذونها بالنهار»[1].

فهذه الخطوات الثلاث: -أي: اعتبار آيات القرآن رسائل من ربّهم، ومن ثمّ توقيرها وتعظيمها، ثمّ تدبُّرها والتّفكّر في معانيها، ثمّ تنفيذها وإقامة أوامرها ونواهيها– خطوات ضروريّة، وترتيبها كذلك ضروريٌّ، ذلك أنّ العمل الّراشد اتّباعاً للقرآن لا يتسنّى بدون قراءةٍ وتدبُّر لإدراك معانيه، كما

(١) التبيان في آداب حملة القرآن: ص ٢٧.

أنّ القراءة والتدبر لا تتحقّق الثمرة المرجوّة من ورائهما، إذا لم يكن في القلب محبّة وتعظيمٌ للقرآن الكريم.

لكن هذا لا يمنع أن يقود التّدبّر إلى التعظيم، وأن يؤدي العمل إلى التّدبُّر، وأن يؤثر أيٌّ من هذه العناصر الثلاثة (التّعظيم، التّدبّر، التّطبيق) على العنصرين الآخرين.

لكن يبقى تعظيمُ القرآن الكريم هو القاعدةُ، وعلى أساسه تكون التلاوة والتدبر، وعلى أساس التلاوة والتدبر يكون الالتزام والتطبيق العمليُّ.

ولْيحذر المؤمن من هجْر القرآن حتى لا يدخل في ضمن من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان].

يقول أبو جعفر الطبريُّ:

«يقول تعالى ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ يوم يعضُّ الظالم على يديه ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي﴾ -الَّذين بعثتني إليهم لأدعوهم إلى توحيدك- ﴿ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾.

واختلف أهل التأويل في معنى اتخاذهم القرآن مهجوراً، فقال بعضهم: كان اتخاذهم ذلك هُجراً، قولهم فيه السيئ من القول، وزعمهم أنه سحر،

وأنه شعر! ... وقال آخرون: بل معنى ذلك: الخبرُ عن المشركين أنهم هجروا القرآن وأعرضوا عنه ولم يسمعوا له، ... »[1].

وأصل الآية يُشير إلى أنَّ هجر القرآن هو صنيعُ المشركين والكفار، بيد أنّ معناه يمتدُّ ليشمل ضروباً من الهجر، ممّا يقع فيه المسلمون أنفسهم، يقول ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيِّه محمد -صلواتُ الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدِّين، أنَّه قال: ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾، وذلك أنَّ المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآن ولا يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] وكانوا إذا تُلي عليهم القرآن أكثروا اللَّغَط والكلام في غيره، حتى لا يسمعوه، فهذا من هجرانه، وتركُ علمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وتركُ الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وتركُ تدبره وتفهُّمه من هجرانه، وتركُ العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدولُ عنه إلى غيره -من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره- من هجرانه»[2].

---

(١) تفسير الطبري: ١٩/ ٢٦٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٦/ ١٠٨.

ويسرد ابن القيّم أنواع هجر القرآن ودرجاته، فيقول:

«أَحدها: هجرُ تِلاوَتِه[1] وَالْإِيمَان بِهِ والإصغاء إِلَيْهِ.

وَالثَّانِي: هجرُ الْعَمَل بِهِ وَالْوُقُوف عِنْد حَلَاله وَحَرَامه، وَإِن قَرَأَهُ وآمن بِهِ.

وَالثَّالِث: هجر تحكيمه والتحاكم إِلَيْهِ فِي أُصُول الدّين وفروعه، واعتقاد أَنه لَا يُفِيد الْيَقِين وَأَن أدلته لفظيةٌ لَا تحصّل الْعلم.

وَالرَّابع: هجر تدبّره وتفهّمه وَمَعْرِفَة مَا أَرَادَ الْمُتَكَلّم بِهِ مِنْهُ.

وَالْخَامِس: هجر الِاسْتِشْفَاء والتداوي بِهِ فِي جَمِيع أمراض القلب وأدوائه فيطلب شِفَاء دائه من غَيره ويهجر التَّدَاوِي بِهِ»[2].

ويؤكد ابن القيم أنّ كلَّ هذا «دَاخلٌ فِي قَوْله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾، وَإِن كَانَ بعضُ الهجر أَهْونَ من بعض»[3].

(١) في الأصل: سماعه، وهو تكرار لقوله: والإصغاء إليه.

(٢) الفوائد: ص٨٢.

(٣) المرجع السابق.

إذن، فالمسلم الّذي لا يتعاهد القرآن بالتِّلاوة، يشملُه معنى الهجر، وللأسف فإنّ كثيراً من المسلمين اليومَ قد هجروا القرآن، وما عادوا يولونه ما يستحقُّه من العناية والاهتمام والتوقير والتَّعظيم!

ونجد أنّ بعضهم لا يتلون القرآن إلا في رمضان، ثمّ تنقطع صلتُهم به أحد عشر شهراً، وقد قال إسحاق بن راهويه وغيره: «يكره للرجل أن يمرّ عليه أربعون يومًا لا يقرأ فيها القرآن، كما أنه يكره له أن يقرأه فى أقل من ثلاثة أيام»[1].

وكذلك من أنواع هجر القرآن: المسلم الّذي يتلوه ولكن لا يعمل به، وكذلك من أنواعه عدم التّحاكم إليه، والتّحاكم إلى غيره من الفلسفات والأنظمة الباطلة، وهناك دولٌ فيها إذاعات للقرآن الكريم، تتلوه آناء الليل وأطراف النهار، لكنها تُحَكِّم في حياتها وفي أنظمتها غير القرآن، فهذا من أعظم الهجر، وهو غيرُ هجر العمل و هجر القراءة.

فعلى كلِّ مسلمٍ أن يبرئ ذمَّته من الوقوع تحتَ طائلة هذا الهجر، وذلك بأن يعملَ على تحكيم القرآن في حياته الخاصّة، وفي حياة أسرته الصّغيرة، ممّا

(١) فضائل القرآن لابن كثير: ٢٢٢.

يستطيعه، وله سلطان مباشر عليه، ثمّ يدعم جهود العاملين من أجل تحكيم القرآن على مستوى المجتمع والدولة.

وإنَّ من هجر القرآن هجرَ تدبره، وقد نعى الله تعالى على من يقع في ذلك فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]، وكما يقول العلامة ابن كثير رحمه الله: «وترك تدبره وتفهُّمه من هجرانه»[1].

ومن أنواع هجر القرآن تركُ الاستشفاء به، فالذي لا يستشفي بالقرآن يكون من الهاجرين له، وليس المقصود الاستشفاء بآيات الرقية فحسب، بل القرآن كلّه شفاء لما في الصدور ورحمة، يقول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، و (مِن) هنا بيانية، أي كلُّ آيةٍ فيها شفاء ورحمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾، فبيَّن أن من هجر القرآن فهو من أعداء الرسول»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٦/ ١٠٨.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/ ١٠٦.

حفظ القرآن الكريم

فضلُ تلاوة القرآن الكريم وسموّ مكانة حافظِيهِ.

تلاوة القرآن الكريم من أفضل العبادات والقربات إلى الله تعالى، فكل حرف نتلوه لنا به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها كما في الأحاديث الصحيحة كحديث ابن مسعودﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (آلم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[1].

المداومة على التلاوة تيسّر الحفظ وترسخه، وتُعدُّ من الطرق الرئيسة في المراجعة، فبعض السور والآيات التي تكثر تلاوتها والاستماع إليها لا يحتاج حفظها إلى عناء غالبًا، وأمثلة ذلك: أواخر سورة البقرة، وسورة الكهف، وأواخر سورة الفرقان، وسورة الواقعة والملك، وكذلك جزء عمّ. وهنا يتميّز القارئون، فمن كانت عادته المداومة على التلاوة يومياً وتحديد مقدار يتلوه بلا انقطاع، فإن الحفظ بالنسبة إليه سهل ميسور، وسيجد في كثير من الأحيان أن ما يريد حفظه يكاد يكون محفوظاً من قبل. وأما من كان قليل

(١) رواه الترمذي في سننه:(٥/ ١٧٥) ح (٢٩١٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال:ويروى من غير هذا الوجه عن ابن مسعود. "تعلموا القرآن، واتلوه تؤجروا بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: الم، ولكن ألف، ولام، وميم" مصنف أبي شيبة:(٦/ ١١٨) ح (٢٩٩٣٤).

التلاوة، ولا يتخذ لنفسه مقداراً محدداً يتلوه كلَّ يوم، فإنه سيجد صعوبةً أكبر في الحفظ. ولقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى هذا الطريق الذي هو دأب الصالحين لكي نرسخ حفظنا للقرآن وننجو من عاقبة النسيان، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن نبيّنا عليه الصلاة والسلام قال: «وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نسيه»[1].

بيد أنَّ التلاوة المعتمدة على الحفظ هي المقامُ العالي الرّفيع: ويدلُّ على ذلك أمورٌ:

أولاً: أنّ الله عزّ وجلّ قد استعمل الحافظين لكتاب الله، في تحقيق وعده ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر]، ففي صدرك يا حافظ القرآن كتاب لا يغسله الماء، وقد جاء في الكتب السابقة في صفة هذه الأمة: «أناجيلُهم في صدورهم»[2]. ومصداق ذلك في قوله سبحانه: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾[العنكبوت: ٤٩].

(١)صحيح مسلم (٢٢٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير:(١٠/ ٨٩) ح (١٠٠٤٦) وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضَّعيفة والموضوعة (٣٧٧٠).

ثانياً: ما ورد من إباحة الحسد لمن آتاهم الله تعالى نعمة حفظ القرآن الكريم، يقول النبي ﷺ : «لا تَحَاسُدَ إِلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ فَيَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ»(١). والحسد المباح هنا هو الغِبطة، وهي تمني مثل ما للغير من الخير دون تمني زوال النعمة عنه، وإلا كان الحسد المذموم المحرم.

ثالثاً: ما ورد في السُّنّة المطهّرة، من عُلوِّ مرتبة الحافظين لكتاب الله تعالى وفضلهم، فعن عائشة رضي الله عنها عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويَتَتَعْتَعُ فيه وهو عليه شاق له أجران»(٢)، والسفرة: الرسل؛ لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله، وقيل: السفرة: الكتبة، والبررة: المطيعون، من البرّ وهو الطاعة، والماهر: الحاذق الكامل الحفظ الذي لا يتوقف ولا تشقُّ عليه القراءة لجودة حفظه وإتقانه،

---

(١) صحيح البخاري (٦٩٧٤).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٥٤٩)ح:٧٩٨، ورواه البخاري بلفظ:"مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ، وهو يتعاهده، وهو عليه شديد فله أجران".(٦/ ١٦٦) ح:٦٩٧٣.

«قال القاضي: يحتمل أن يكون معنى كونه مع الملائكة أنَّ له في الآخرة منازلَ يكون فيها رفيقاً للملائكة السَّفرة؛ لاتِّصافه بصفتهم من حمل كتاب الله تعالى. قال: ويحتمل أن يُراد أنه عاملٌ بعملهم وسالكٌ مسلكهم...والماهر أفضل وأكثر أجراً؛ لأنه مع السفرة وله أجور كثيرة، ولم يذكر هذه المنزلة لغيره، وكيف يلحق به من لم يعتن بكتاب الله تعالى وحفظه وإتقانه وكثرة تلاوته وروايته كاعتنائه حتى مهر فيه؟! والله أعلم.» (١)

وأيضاً ورد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍوﷺعَن النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:«يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ، كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا» (٢)، قوله: (يقال) أي عند دخول الجنة (لصاحب القرآن) أي: لحافظه الذي يلازمه بالتلاوة والعمل(٣)، (وارتق) أي: اصعد إلى درجات الجنة، (ورتّل) أي: اقرأ بالترتيل ولا تستعجل بالقراءة (كما كنت

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/ ٨٥).

(٢) سنن الترمذي (٢٩١٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) صاحب القرآن تحتمل معنيين: الملازم لتلاوته وإن لم يكن حافظًا له، فكأنه صاحب له لا يفارقه، والثاني: الحافظ له، فوجوده في صدره يجعله مصاحباً له في إقامته وظعنه، والمقصود الحافظ التالي له، وهو الأقرب ثمة عندما يقال: اقرأ وارتق، فظاهره أن القراءة من الصدر والله أعلم.

ترتل في الدنيا) من تجويد الحروف ومعرفة الوقوف (فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها).

خطوات عملية تيسّر حفظ القرآن الكريم:

أكثر المسلمين يتمنى حفظ القرآن الكريم، ولكن بعضهم مجرد أماني، فلا يسعى لذلك جادّا، ويأخذ بالأسباب المؤدية إليه، والأماني رؤوس أموال المفاليس، وآخرون جادون في رغبتهم بحفظ القرآن الكريم، ساعون لذلك، وهم على قسمين:

١-قسم سلك الطرق الصحيحة للحفظ فَوُفّق له، وأصبح من حفاظ كتاب الله تعالى.

٢-قسم آخر يسعى لذلك، ولكن سرعان ما يتوقف عن تحقيق غايته، ومن أهم أسباب ذلك أنه لم يسلك الطرق الصحيحة للحفظ، فيصبح كالمنبتّ، لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى؛ ولذا سأذكر أهم الوسائل العملية التي تيسر الحفظ لمبتغيه، وهي وسائل أفدتها من تجارب متنوعة لكثير من الحفاظ، ثم عرضتها على بعض المتخصصين فأفادوني بما يرونه، ولا شك أن الفروق الفردية لها أثرها في سرعة الحفظ وإتقانه، ومن أهم تلك الوسائل:

أولاً: تعاهد النية ومجاهدة النفس في تصحيحها.

فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، ومن حقق الإخلاص، وأصلح النية فحري به أن يعان، وحري بالذي يرجو ثواب الله ويجتهد لوجهه أن لا ينقطع، بخلاف الذي يعمل لأسباب أخرى فاستمراره منوط بتلك الأسباب، متى ذهبت ذهب. وتأمل هذه الآية تجد مفتاح الحفظ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ومن المجاهدة صدق النية، ومعالجة ما قد يوسوس به الشيطان أثناء الحفظ فقد يصرف الإنسان عن الحفظ بدعوى البعد عن الرياء.

والأمر أشد من ذلك، فحافظ القرآن في عبادة من أجل العبادات، فإن أخلص لله في حفظه قُبلت عبادته، ونمت وبُورك له، وإن قصد بذلك غير وجه الله تعالى تركه وشركه! وقد روى ابن ماجه وغيره حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ»(١) والقرآن من أعظم العلم.

(١) سنن الترمذي (٢٦٥٤)، وابن ماجه (٢٥٣)، وانظر صحيح الجامع للألباني (٦١٥٨).

وفي حديث أول مَن تُسعر بهم النار يوم القيامة: رجل قرأ القرآن ليقال قارئ[1]!

ثانيًا: الاجتهاد في سلوك سبيل الطَّاعة، وتجنّب كلّ طريقٍ يؤدّي إلى المعصية.

فالإمام الشافعي المشهور بسرعة الحفظ يُروى أنه شكى إلى شيخه وكيع بن الجراح تباطؤ الحفظ عليه، فأرشده إلى علاج حاسم وهو ترك المعاصي وتفريغ القلب من كل ما يحجزه عن ربه، يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يؤتى لعاصي

وقد نسبت هذه الأبيات إلى غيره من أهل العلم، وأياً ما كان فهي وصية محل حفاوة وذكر عند أهل العلم[2].

يقول ابن المنادي رحمه الله: «إنَّ للحفظ أسباباً ... منها احتشامُ المنَاقِص جملةً -أي: اجتناب المعايب- وذلك أنَّ المرء إذا زجر نفسه، وأقبل على الله

(١) سنن الترمذي وصحيح ابن خزيمة كلاهما برقم (٢٣٨٢)، وصحيح ابن حبان (٤٠٨).

(٢) ينظر ديوان الشافعي جمع وتحقيق ودراسة د. مجاهد مصطفى بهجت، ص٨٣.

بالموافقة، وعت أذنُه، وصفا من الرّين ذهنه»، والرّين: ما يغطي القلب من غشاوة المعاصي، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين]. فمن جاهد نفسهُ للبعد عن المعاصي فتحَ الله عز وجل قلبه لذكره، وهداهُ لتدبُّر آيات كتابه، ويسَّر عليه حفظه ومدارسته، وفي ذلك يقول المولى سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت].

ثالثاً: الدافع الذاتي والعزيمة الصادقة.

الرغبة القوية الصادقة لها أكبر الأثر في تقوية الحفظ وتسهيله وتركيزه، أما الذي يريد أن يحفظ تحت إلحاح والديه أو مدرسه دون اقتناع ودافع ذاتي فإنه قد لا يستمر طويلاً، وقد يصاب بالفتور، ويزداد الدافع الذاتي بالتشجيع المستمر، ومعرفة أجر ومنزلة حفظة القرآن الكريم ومجالس القرآن، وإذكاء روح التنافس في الحلقة أو البيت أو المدرسة، وبصدق العزيمة تندحر وساوس الشيطان وتخنس النفس الأمارة. قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «من صَدق العزيمة يئس منه الشيطان، ومتى كان العبد متردِّداً طمع فيه الشيطان وسوَّفه ومنَّاه!»[1].

(١) مجموع رسائل ابن رجب: ١/ ٣٤٨.

ولابد من التأكيد هنا على أهمية الصبر ومجاهدة النفس، وتحمل الصعاب، وعدم الاستسلام للكسل والفتور، وتنشيط الهمَّة، ولهذا كان ابن الجوزيِّ رحمه الله يتحدَّث عن نفسه فيقول: «لقد كنت في حلاوة طلبي للعلم، ألقى من الشَّدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو»(١).

والمسلم بحاجة إلى أن يشحذ همته بين فينة وأخرى، ويكون ذلك بالنظر في كتب فضائل القرآن، وفضائل العلم، وبسماع الكلمات النافعة التي ترفع الهمة وتدعو للإقبال على كتاب الله تعالى كحديث: «إن الله يرفع بهذا القرآن أقوامًا ويضع به آخرين»(٢)، ومعرفة الأجر المدخر للتالين والحافظين لكتاب الله يوم القيامة.

رابعًا: اغتنام الشباب وسنوات الصغر.

لأن الصَّغير أفرغُ قلباً وأقلُّ شغلاً، وقد حُكي عن الأحنف بن قيس أنه سمع رجلاً يقول: التعلم في الصغر كالنقش على الحجر. قال الأحنف: الكبير أكثر عقلاً لكنه أشغل قلباً. وينبغي لمن فاتته مرحلة الشباب أن لا يتهاون في الحفظ، فإنه إذا فرّغ قلبه عن المشاغل والهموم سيجد سهولة في

(١) صيد الخاطر: ص ٢٣٥.

(٢) صحيح مسلم (٨١٧).

حفظ القرآن الكريم لا يجدها في غيره، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]. وهذا من خصائص القرآن، والصحابة تعلموا العلم على كبر، والقرآن أعظم العلم، وهناك من أتقنوا حفظ القرآن بعد أن تقدم بهم العمر، فلم يستسلموا لدعوى أن الكبير لا يحفظ، فيسّره الله لهم.

والإنسان عندما يصل إلى مرحلة الشيخوخة يضعف بصره، وقد لا يقوى على قراءة القرآن من المصحف، وعندها سيجد ما يحفظه في صدره كنزاً يتلوه ويتهجد به، وإن لم يكن قد حفظ من القرآن شيئاً يُذكر فما أعظم ندامته، وأقلّ سلوته.

خامسًا: اغتنام أوقات النَّشاط والفراغ.

فلا ينبغي أن نحفظ في وقت الملل والتعب، أو عندما يكون الذهن مشغولاً في أمر ما، لأن هذا يمنع من تركيز الحفظ، بل يجب علينا اختيار وقت النشاط وراحة البال، وحبذا لو جعلنا ذلك بعد صلاة الفجر ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨] فهو من أنفع الأوقات لمن نام مبكراً، وآخر الليل أفضل لمن قدر، واغتنام أوقات النشاط مهم جداً، فلنعرف من أنفسنا متى نستطيع أن نعمل، ومتى ينبغي أن نرتاح. وتأمل في

هذا الحديث الصحيح، قال ﷺ: «ليصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد» وفي لفظ (فليرقد)[1].

وينبغي التنبيه هنا على أن الذي يعطي القرآن والعلم فضول الأوقات، وأوقات الخمول، ويدخر أوقات النشاط والقوة إلى أعمال أخرى، ويضن بها أن تبذل في القرآن، فحري بمثله أن لا يوفق لكثير علم فيه!

سادسًا: اختيار المكان المناسب عند الحفظ.

وذلك بالبعد عن أماكن الضجيج والضوضاء، لأن هذا يشغلنا ويشتت أذهاننا، فيجب علينا أن لا نحاول الحفظ بين أولادنا، أو في أماكن عملنا بين زملائنا وأصوات الناس من حولنا تملأ المكان، وعلينا ذكر قول الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤]، بل ينبغي أن نهيئ أسباب السكون واجتماع القلب على الحفظ، وأن نساعد على توفير هذا الجو في البيت في وقت الحفظ، واعتبر هذا بحال الطالب الذي يذاكر للامتحان، وكيف يحرص أهل البيت على تهيئة المكان الملائم، والقرآن أحق بذلك، وانظر إلى بركة الحفظ في المساجد، وسرعة وقوة إتقانه.

(١) صحيح البخاري (٢/ ٥٣) ح(١١٥٠)، صحيح مسلم (١/ ٥٤١) ح (٧٨٤).

سابعاً: الواقعية في مقدار الحفظ اليومي:

يتفاوت الناس في ملكات وقدرات الحفظ، فمنهم سريع الحفظ، ومنهم البطيء، والأكثرون متوسطو الحفظ، لذا لا بد على كل شخص أن يراعي ملكاته وقدراته ومواهبه، والتقليد في هذا يؤدي عكس المراد، إسراعًا أو بطئًا، يقول الله سبحانه:﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤]، وكذلك مراعاة الظروف حين يعزم على الحفظ، فالمتفرغ غير المشغول بكثير من الواجبات أقدر على الحفظ وأوسع قلباً له من المنشغل بغيره.

إذًا فيكون تقدير ما يحفظ ويراجع يوميًا أو أسبوعيًا متوافقًا مع مواهبه ومتسقًا مع ظروفه.

وعلى المربين والمشرفين على الحلقات مراعاة الفروق بين طلابهم، حيث لا يبغي أحدٌ على أحد، وإلا كان كالمنبت، لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، فالحفظ حسب نشاط وقوة وقدرة وظروف الحافظ، ولْيتخذ هذا

الحديث منهجًا في حياته كلها: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[1]، وفي لفظ: «وكان أحب العمل إليه ما داوم عليه صاحبه»[2].

ثامنًا: مشاركة الحواسِّ عند الحفظ.

تختلف إمكانات الناس وقدراتهم في الحفظ، وتتفاوت قوةُ الحفظ بين شخص وآخر، ولكن الاستفادة من عدة حواس يسهل الأمر ويرسخ الحفظ في الذاكرة. فاحرص أخي على اشتراك حاسة النظر والسمع والنطق في ذلك، لأن لكل حاسّة طريقاً موصلاً إلى الدماغ، فإذا كثرت الطرق قوي الحفظ وترسخ، ويكون ذلك بأن يبدأ الحفظ بتلاوة جهرية لما يُراد حفظه، وهو ينظر في الصفحة التي يتلوها، مع تدقيق النظر وتكراره حتى تنطبع صورة الصفحة في ذاكرته، ويشارك سمعه في سماع التلاوة فيرتاح لها، وبخاصة إن كان يقرأ مع التَّغنِّي المشروع المحبَّب إلى النَّفس «**ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآنِ** »[3]، أما من يحفظ بالنظر إلى المصحف وهو ساكت، أو عن طريق سماع تسجيل للقرآن دون أن ينظر في المصحف، أو يكتفي أثناء حفظه

---

[1] صحيح البخاري (٦٤٦٤).

[2] صحيح مسلم (٧٨٢).

[3] صحيح البخاري (٧٥٧٢).

بالقراءة بصوت خافت، فكل هذه الطرق لا تؤدي إلى المطلوب بشكل ميسور في الغالب، وإن ناسبت أشخاصًا دون آخرين، لكنها ليست الطريقة الأمثل للأغلب، يقول الشيخ عبد الكريم الخضير: «إن الذي يحفظ القرآن سرًّا يصعب عليه بعد حفظه أن يقرأ جهرًا، أو أن يؤم الناس في الصلاة الجهرية أو التراويح».

تاسعًا: تحديد طبعة واحدة للمصحف.

ويفضل اختيار طبعة مصحف الحفّاظ التي تبدأ كل صفحة فيها ببداية الآية، وتنتهي بنهاية الآية، وهذا الأمر له أثر كبير في ترسيخ صورة الصفحة في الذاكرة، وإعادة تركيز هذه الصورة عند المراجعة. أما إذا تغيرت طبعات المصحف فإن هذا سيؤدي إلى انطباع صور مختلفة في الذهن، وتشتيت الحفظ وعدم التركيز، ولذا فإن نقل صورة وشكل المصحف الذي تحفظ منه إلى قلبك من أعظم وسائل رسوخ الحفظ وسهولة الاستذكار عند الاشتباه أو النسيان، ويكون هذا بكثرة تكرار النظر للمصحف حتى وإن حفظت سريعًا لترسيخ صورة الآيات في قلبك، وقد رأيت أحد كبار الحفاظ معه مصحف طبعته قديمة، وأصبح وجودها نادرًا، فسألته، فقال: إني حفظت على هذا المصحف، ويصعب أن أراجع غيره إلا للضرورة.

عاشرًا: ضبط النطق.

يجب عليك قبل بدء الحفظ تصحيح النطق وضبط الكلمات القرآنية بالقراءة على أحد المتقنين، أو سماع المقطع الذي تريد حفظه بصوت أحد القرّاء المجودين، لكي تنأى عن الوقوع في اللحن ما أمكن، ولاسيما أثناء الحفظ، فالكلمة التي تحفظها بشكل خاطئ يصعب عليك تصحيحها بعد أن رسخت في الذَّاكرة، أما دعوى (احفظ ثم اضبط) فهي طريقة خاطئة سلبية، بل الصحيح: (اضبط ثم احفظ).

حادي عشر: الحفظ المترابط.

كلَّما حفظت آية وتمكَّنت منها أعد قراءتها مع الآية التي قبلها، ثم انتقل إلى آيات أخرى، تربط بعضها ببعض حتى تكمل الصفحة، وعندها ينبغي إعادة قراءتها وربط جميع آياتها قبل الانتقال إلى صفحة أخرى، وكذلك عندما تكمل حفظ سورة ما، لا تبدأ بغيرها حتى تعيد تكرارها، لتضمن ترابط آياتها في ذاكرتك. وعدم اتّباع هذه الطريقة سيجعل حفظك غير مترابط، وستجد نفسك بحاجة إلى من يُذكِّرك ببداية كلِّ آيةٍ عند تسميع الحفظ، كما يجعلُك تعاني صعوبةً كبيرة أثناء المراجعة، وترابط الآيات يعينك

على عدم تداخل الآيات عند التشابه، بل ربما تقرأ السورة كاملة ولو كنت شارد الذهن أحيانًا.

ثاني عشر: فهمُ المعاني.

وممَّا يُساعد على ترابط الآيات وتسهيل الحفظ: أن ترجعَ إلى بعض التفاسير المختصرة بين الحين والآخر، لتفهم معاني تلك الآيات ولو على وجه الإجمال، أو على الأقل استعن ببعض كتب غريب القرآن ومعانيه، ككتاب (كلمات القرآن تفسير وبيان) للشيخ حسنين محمد مخلوف، فإنَّ معرفة معاني الكلمات يُساعد على توضيح المعنى الإجمالي للآيات، وهذا يساعد على استحضار السياق، ومعرفة اللاحق للأول.

ثالث عشر: الحفظ المتقن.

بعض مريدي الحفظ يقرأ المقطع بضع مرات، فيظن أنه قد حفظه، وينتقل إلى مقطع آخر حرصاً على السرعة، بسبب ضيق وقته أو تنافسه مع زميله، أو إلحاح مدرِّسه، وهذا لا يثمر غالبًا، فالقليل الدائم خير من الكثير المنقطع، والحفظ السريع يؤدي إلى النسيان السريع. وقد ذكر أحد المتقنين للحفظ أنه أثناء حفظه كان يكرر المقطع ستين مرة، وأحياناً ثمانين مرة مع أنه

حفظ القرآن في مرحلة الكهولة [1]، فأصبح بعد ذلك لا يحتاج إلى المصحف، رغم توالي السنون وتقدم العمر به وبلوغه الشيخوخة.

رابع عشر: التدقيق في الآيات المتشابهة.

ملاحظة الآيات المتشابهة في بعض ألفاظها ومقارنة مواضع التشابه فيها أمر مهم جداً، فحبذا لو سجلت في دفتر خاص ما يمر معك أثناء الحفظ من تشابه بين الآيات، لتستحضر مواضع التشابه أثناء المراجعة، والملاحظ عند بعض الطلاب الّذين لا يعتنون بمواضع التشابه بين الآيات، أنهم يقعون أثناء التسميع في الخطأ، إذ تشتبه عليهم آية ما مع ما يشابهها في سور أخرى، فينتقل من سورة لأخرى. ولهذا كان الطريق الأمثل للحفظ المتقن التركيز على مواضع التشابه، وملاحظتها، وبذل الجهد في الاهتمام بها.

يقول ابن المنادى رحمه الله في بيان أهمية معرفة المواضع المتشابهة من آيات القرآن الكريم: «إن معرفة مواضع التشابه يساعد في تقوية حفظ الحافظ وتدريب المتحفظ، وقد وضع فريق من القراء هذا النوع ولقبّوه المتشابه، درءاً

[1] مرحلة الكهولة بين سن (٣٣ - ٥٥) أي بين الشباب والشيخوخة، ومن الخطأ الشائع أن الكهولة هي الشيخوخة، وتأمل قول الله سبحانه لعيسى عليه السلام: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾[المائدة: ١١٠]، مع أن الله رفعه إلى السماء قبل وصوله إلى مرحلة الشيخوخة بسنوات.

من سوء الحفظ». وقد ألّف العلماء كتباً عديدة في ذلك، ومن أبرزها: (متشابه القرآن العظيم) لأبي الحسن بن المنادى، المتوفى في سنة ٣٦٦ هجرية، وكتاب (البرهان في متشابه القرآن) لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، من علماء القرن الخامس الهجري، وكذلك للسخاوي نظم في المتشابه، وقد ألف غير واحد من المعاصرين في المتشابه، وبعضهم اعتنى بإعداد دورات تساعد على ضبط المتشابه.

خامس عشر: الحفظ الجماعي أدعى للمداومة.

لأنَّ عادة الإنسان التسويف، فكلما خطر له أن يُبادر للحفظ جاءته المشاغل، ودعته نفسه إلى التأجيل، وسرعان ما تفتر عزيمته، أما الحفظ بمشاركة أخٍ أو إخوة يتواصَون على ذلك، ويضعون خطّة يتّفقون عليها، ويُقوّي بعضهم عزيمة بعضٍ، ويحصل التنافس الشريف بينهم والعتاب على التقصير، فهذا هو الطريق الموصل للهدف بإذن الله.

وكم من أخٍ حفظ عدة أجزاء في دور التحفيظ، ثم شُغل عن الحضور إلى هذه الحلقات، وظنَّ أنه من الممكن أن يُكمل المسير بنفسه، وإذا به تضعف همته، ثم يتوقف عن الحفظ، والأدهى من ذلك أن أمثال هؤلاء

يشغلون أحياناً بأمورهم وأعمالهم، فيتركون مراجعة الحفظ السابق، وتمضي الأيام وإذا بهم قد نسوا كل ما حفظوه، وضيعوا كلَّ ما جنَوه.

ثمَّ إنَّ الحفظ الانفرادي يُعرض الإنسان للوقوع في الخطأ أثناء نطق بعض الآيات، وقد يستمرُّ هذا الخطأ مدة طويلة، دون انتباه، ولكن عند التسميع لآخرين مُتقنين فإنَّ الخطأ سيظهر.

فاختر لنفسك أخوةً تحبّهم في الله يُعينونك وتُعينهم على حفظ ما يتيسر من كتاب الله، وهذا أفضل ما يجتمع عليه الإخوة المتحابُّون في الله، وبخاصة في حلقات المساجد، وقد ورد الحديث الصحيح في ذلك: «ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله ، يتلون كتابَ الله ، و يتدارسونه بينهم ، إلا نزلتْ عليهم السَّكينةُ : وغَشِيَتْهم الرحمةُ ، و حفَّتهم الملائكةُ ، و ذكرهم اللهُ فيمن عندَه»[1].

فإن تعسر ذلك فلا أقل من الارتباط مع مقرئ أو شيخ محفظ، يتابع معك ويصوب قراءتك، وهذا الشيخ قد يكون أباً أو أخاً، وقد تكون الشيخة أمًّا أو أختاً فاضلة، وفي البيوت كثير من الفاضلات الحافظات لكتاب الله تعالى.

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٩٩).

سادس عشر: تعاهُد القرآن.

عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ الإبلِ فِي عُقُلِهَا»[1].

«قوله: (تعاهدوا) هذا الخطاب للحفاظ، أي استذكروا القرآن وواظبوا على تلاوته، واطلبوا من أنفسكم المذاكرة به ولا تقصروا في معاهدته واستذكروه ... فمن شأن الإبل تطلب التفلت ما أمكنها، فمتى لم يتعاهدها برباطها تفلتت، فكذلك حافظ القرآن إن لم يتعاهده تفلّت بل هو أشد في ذلك. وقال ابن بطال: هذا الحديث يوافق الآيتين: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر] فمن أقبل عليه بالمحافظة والتعاهد يُسّر له، ومن أعرض عنه تفلَّت منه»[2]، وعَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: «مَثَلُ الْقُرْآنِ مَثَلُ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ تَعَاهَدَهَا صَاحِبُهَا بِعُقُلِهَا أَمْسَكَهَا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَطْلَقَ ذَهَبَتْ»[3]، والتعاهد يكون بتخصيص أوقات للمراجعة، وأوقات

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٤٥).

(٢) فتح الباري: ٩/ ٨١.

(٣) صحيح البخاري (٤٦٤٣).

للختمة كل مدة، وأوقات للصلاة، وأوقات للاستذكار، وأعرف أحد طلاب العلم من المتقنين للحفظ يقول: منذ حفظت القرآن قبل سنوات طويلة لم أترك ختمة واحدة حسب ما قد التزمت به من وقت محدد، بل قد تمرّ السنة وأكثر ولم أحتج إلى الرجوع إلى المصحف. فعلى المتعاهد أن يراعي أثناء الحفظ مراجعة ما حفظ، ويكون على هذا النحو:

١. أن تراجع ما حفظت كل يوم عدة مرات في اليوم الواحد طول مدة الحفظ.

٢. أن تراجع كل أسبوع ما حفظت في الأسبوع.

٣. أن تراجع كل أسبوع أو أسبوعين على أقصى تقدير كل ما حفظته منذ بدأت الحفظ، وستجد أنك مع حفظ آخر القرآن قد ضبطت القرآن كله، بخلاف إذا حفظته مقطّعًا فستحتاج إلى حفظٍ آخر.

٤. بعد الانتهاء من حفظ القرآن تجعل لك ختمة أسبوعية حتى تتقن القرآن (١)، وبعد إتقانه، تلتزم بختمة ثابتة بحيث تضمن عدم ضياع القرآن وتفلته منك، وكلما كانت الختمة في عشرة أيام أو أسبوعين

(١) ذكر لي المشرف على مقرأة جدّة أنه استنبط من قوة حفظ كثير من الناس لسورة الكهف، بسبب أنهم يقرؤونها أسبوعيًا، فجعل منهج المقرأة أن يختم الطالب أسبوعيًا حتى يتقن القرآن، وهو استنباط جميل وجيد ومجرّب.

كان أقوى للحفظ، وقد ذكر بعض الحفاظ، كالشيخ صالح ابن حميد إمام المسجد الحرام، أن الختمة كل أسبوعين هي المعدل المناسب، وبلغني أن الشيخ ابن باز رحمه الله كان يقوم الليل بجزأين من القرآن، مع أن المراد والغاية هو استمرار التلاوة لكتاب الله، وليس مجرد الحفظ، فهل حفظت إلا من أجل الإكثار من ذكر الله، والقرآن أعظم الذكر، ولذا كان كثير من السلف يختمون كل ثلاثة أيام.

سابع عشر: الحفاظ على هذه الرتبة العالية الشريفة واستحضار عاقبة التفريط.

فلا يُزحزحنك الشيطان عن هذه الرتبة العالية بعد إذ نلتها، قال ابنُ حجر رحمه الله في الفتح: «اختلف السَّلف في نسيان القرآن، فمنهم من جعل ذلك من الكبائر، قال الضحاك بن مزاحم: ما من أحدٍ تعلَّم القرآن ثم نسيهُ إلا بذنب أحدثه، لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى]، ونسيانُ القرآن من أعظم المصائب، وجاء عن أبي العالية رحمه الله : كنا نعدُّ من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام عنه حتى ينساه، وإسناده جيد، ومن طريق ابن سيرين بإسناد

صحيح في الذي ينسى القرآن: كانوا يكرهونه ويقولون فيه قولاً شديداً ... والإعراض عن التلاوة يتسبب عنه نسيان القرآن، ونسيانه يدل على عدم الاعتناء به والتهاون بأمره ... وترك معاهدة القرآن يفضي إلى الرجوع إلى الجهل، والرجوع إلى الجهل بعد العلم شديد، وقال إسحاق بن راهويه: «يكره للرجل أن يمر عليه أربعون يوماً لا يقرأ فيها القرآن»(١)، ومن الدعاء: (اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور)(٢)، أي من النقص بعد البناء أخذاً من تكوير العمامة ثم نقضها بعد ذلك، فمن حفظ ثم نسي فقد وقع في الحور (النقض)، بعد الكور؛ (دقة الحفظ)! وكم أحزن عندما يحدثني بعض من كان يؤم الناس حفظًا في رمضان: إنّ القرآن قد تفلّت منه بعد تركه للإمامة، والسرّ أنه لم يتعاهده، فياطول حسرة المفرطين، وإنني لأتعجب: أي شيء يشغل عن كتاب الله، حتى يذهب ويتفلت، ولو لم يكن في ذلك إلا الحياء من الله تعالى عندما تلقاه، حيث أكرمك بالحفظ ففرطت فبمَ تجيب؟

(١) فتح الباري: ٩/ ٨٦.

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٤٩٧) ح (٣٤٣٩)، وصحيح ابن خزيمة:(٤/ ١٣٨) ح(٢٥٣٣).

وأخيراً: حقيقةُ الحفظ.

واعلم أخي أنّ حقيقة الحفظ في الشّريعة، هي ما ورد في قوله ﷺ: «احفظ الله يحفظك»[1]، يقول الشيخ ابن عثيمين: «(احفظ الله يحفظك) كلمة جليلة عظيمة، احفظ اللهَ، وذلك بحفظ شرعه ودينه، بأن تمتثل لأوامره وتجتنب نواهيه، وكذلك بأن تتعلَّم من دينه ما تُقوِّم به عبادتك ومعاملاتك، وتدعو به إلى الله عز وجل»[2].

فإذا ما وُفّقت إلى تحقيق هذا الحفظ، كانت العاقبة أن يكلأك الله عزّ وجلّ بحفظه وكنفه الّذي لا يرام، فيحفظك في دينك وفي بدنك ومالك!

ومع ذلك فإنّ حافظ القرآن هو الأجدر بأن يحقّق هذه المرتبة العالية الرفيعة من الحفظ، فحريٌّ به إذ يسّر الله له حفظ القرآن، أن يحفظ به جوارحه، يقول القرطبيّ رحمه الله في تفسيره: «يجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتَّقي الله في نفسه، ويخلص العمل لله، فإن كان تقدَّم له شيءٌ مما يَكره فليُبادر التوبة والإنابة، وليبتدئ الإخلاص في الطلب وعمله، فالذي يلزم

---

(١) سنن الترمذي (٢٥١٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ص: ٧٠.

حامل القرآن من التحفظ أكثر مما يلزم غيره، كما أنَّ له من الأجر ما ليس لغيره»[1].

فلا ينبغي لحامل القرآن، أن يغترَّ بحفظه، ويتكاسل عن العمل، بل عليه أن يُقدر عِظَم ما يحتمله صدره، وأن يعطيه حقّه ومنزلته، وكما ارتقى إلى المنزلة العالية بحفظه فعليه في المُقابل مسؤولية وواجبٌ يوازي ذلك. فإن الحفظ ليس نيشاناً يُعلّق ولا شهادة تُزوّق ولا مكافآت تُفرّق؛ لكنه أمانة يجب القيام بحقّها.

قال النووي رحمه الله: «ليكن على أكمل الأحوال وأكرم الشمائل، ويرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه، ويتصون عن دنيء الاكتساب، وليكن شريف النفس عفيفا، متواضعا للصالحين وضعفة المسلمين، متخشعا ذا سكينة ووقار . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون . وقال الحسن البصري رحمه الله : إن من كان

(١) تفسير القرطبي ١/ ١٩.

قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار»(١).

فينبغي لحامل القرآن أن يكون على أكرمِ الأحوال وأكرمِ الشمائل، قال الفضيل بن عياض: «حاملُ القرآن، حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى الخلق حاجة لا إلى الخلفاء فمن دونهم، وينبغي أن تكون حوايج الخلق إليه»(٢).

فينبغي لحامل القرآن أن يكون ثابت الجَنان قائماً بالحق، ولما حارب المسلمون مسيلمة الكذّاب وقُتل حامل رايتهم زيد بن الخطاب، تقدّم لأخذها سالم مولى أبي حذيفة، فقال المسلمون: يا سالم، إنا نخاف أن نُؤتى من قبلك! فقال: بئسَ حاملُ القرآن أنا إن أُتيتم من قِبَلي، فقُطعت يمينُه فأخذ اللواء بيساره، فقُطعت يساره فاعتنق اللواء، وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص٢٧.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٩٢، وفي أخلاق أهل القرآن للآجري مختصراً.

رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فلما صُرع قيل لأصحابه: ما فعل أبو حذيفة؟ قيل: قُتل[١].

وليحذر حامل القرآن، من التَّكبُّر بذلك على الآخرين، فلربما أفلح المقلّ المعذور وخسر الحافظُ المغرور، ففي حديث أول من تسعر به النار يوم القيامة: رجل قرأ القرآن ليقال قارئ[٢].

ولا ينتظرنْ الحافظ من الناس ثناءً ولا تقديراً، وليجاهد نفسه أن لا يتأثر بمدحهم وإطرائهم؛ إخلاصاً لله؛ نعم يجب عليهم أن يوقِّروا حامل القرآن؛ لأنّ في قلبه كلام الله، وإنَّ من إجلال الله تعالى إكرامَ حامل القرآن غيرَ الغالي فيه ولا الجافي عنه، كما جاء في الحديث[٣]، قال ابن عبد البرّ رحمه الله:

---

(١) أصل الخبر في تفسير مقاتل ٣/ ٢٦٢، وانظر تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٧٨، وترجمة سالم في أسد الغابة ١/ ٣٩٨.[١]

(٢) سنن الترمذي وصحيح ابن خزيمة كلاهما برقم (٢٣٨٢)، وصحيح ابن حبان (٤٠٨).

(٣) حديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً بلفظ: »إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكرام ذي السلطان المسقط«.

قال الألباني: »أخرجه أبو داود وغيره ، وإسناد حسن عندي ؛ كما في المشكاة وغيره«، انظر الضعيفة (٣٢٥٠)، والمشكاة (٤٩٧٢)، وفي الحديث خلاف كبير بين أهل العلم، قال السفاريني في شرح منظومة الآداب: »ذكره الحافظ ابن الجوزي في الموضوعات، وتعقبه« الجلال السيوطي والحافظ ابن حجر وغيرهما، وهو عند أبي داود بإسناد حسن والله أعلم« ١/ ٤٢٧.

«وحملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله، المعظِّمون كلام الله، المُلبَسون نور الله، فمن والاهم فقد والى الله، ومن عاداهم فقد استخفَّ بحق الله تعالى»[1].

وقد ذكر بعض الشافعية أن غيبة حامل القرآن كبيرة، وفرقوا بين غيبة غيره وغيبته، مع عظيم غيبة أي مسلم، فكيف تكون إذًا غيبة حامل القرآن، ولحوم العلماء مسمومة، وأعظم العلم كلام الله[2].

ومع ذلك فإنّ على صاحب القرآن ألا يغترَّ بحقّ وحرمة الحفظ؛ فلربما أخرجه عدمُ الإخلاص من ناديهم، بل عليه التواضع والحمد والشكر.

وقد يوسوس الشيطان لبعض الناس (إذا كان هذا واجب الحافظ، فأخاف أن أحفظ ولا ألتزم بذلك)! والواجب هنا الاستعاذة من الشيطان وأن يبادر إلى الحفظ حتى يحفظ نفسه ودينه، لا أن تؤثر فيه هذه الوسوسة فتكون سببًا لتردّيه في المعاصي وعدم مبالاته بحجة أنه ليس حافظًا، فلنكن على حذر من تلبيس إبليس.

(١) نقله القرطبي في تفسيره ١/ ٢٦.

(٢) ينظر: أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، لابن حجر الهيتمي الشافعي، ص١٩٧.

تدبر القرآن الكريم

من مدارس التّحفيظ إلى معارج التدبُّر.

إن المتأمل في حال المسلمين مع كتاب الله اليوم لا تخطئ عينه ما يُرى من إقبال أعدادٍ كبيرة منهم؛ رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، على كتاب الله عز وجل بالتلاوة والحفظ؛ فجمعيات التحفيظ منتشرة في طول بلاد المسلمين وعرضها، والمساجد تمتلئ بحلق التلاوة والتحفيظ، ودورات التحفيظ تخرّج كل عام العشرات والمئات من الحفاظ، بل حتى في بلاد الغرب وأقصى الشرق عبر المراكز الإسلامية والجمعيات والمساجد نجد العناية والاهتمام بالحفظ والتجويد، حتى قيل إن هذا العصر هو العصر الذهبي لحفظ القرآن الكريم، وهذا بكل تأكيد مما يثلج الصدور؛ لأنه يدل على حرص الأمة بمجموعها على كتاب ربها عز وجل، وحرصها على تحصيل الأجر العظيم الذي وعد الله به عباده التالين لكتابه والحافظين له؛ إلا أنَّ المؤسف أن هذا الإقبال على التلاوة والحفظ والتجويد لا يصحبه إقبال يماثله أو يقرب منه في باب التدبر والفهم والعمل، حتى صرنا نرى من يتم حفظ كتاب الله عز وجل، ولا يعرف معنى كلماتٍ من أوائل السور التي يحفظها صغار الطلاب، فضلًا عن تدبرها.

وقد سجل أحد المسؤولين عن حلقات التحفيظ ملاحظات عديدة في هذا المجال، كان منها قوله: «ظهر لي عدم تدبر أكثر الطلاب لقراءة القرآن الكريم، من خلال عدم مراعاتهم للوقف والابتداء، أثناء تسميعي لهم في الحلقات أو في الاختبارات والمسابقات، فيقف الطالب وقفاً عجيباً، ويبتدئ ابتداءً غريباً، يدلُّ على عدم التدبر والتأمل»[1].

حقّاً، هنالك آلاف المدارس المختصة بتحفيظ القرآن الكريم، فهل توجد عشرات المدارس المختصَّة بتدبُّر القرآن وتعليمه؟! إنَّه حقاً أمرٌ مُلفت للنَّظر، وقد علمنا أنَّ من أعظم غايات إنزال القرآن هو: أن نتفهّم ما فيه من أحكامٍ، لنعمل بها ونطبِّقها، حتى ولو لم نحفظه، إذ إنّ الله تعالى لم يكلّف العباد بحفظ القرآن كاملاً، بل يكفيهم من الحفظ ما تصحُّ به صلواتهم، أما تدبّر القرآن ومعرفة معانيه فالأمة مأمورة ومطالبة به، وواجب حسب القدرة والإمكان.

إنَّ هذه دعوةٌ لإقامة تلك المدارس بل والجامعات المختصَّة بتدبُّر القرآن وتفسيره، وليست دعوةً لإغلاق حلقات التَّحفيظ ومدارسه،

(١) إسهام جمعيات تحفيظ القرآن الكريم في بناء الأجيال، الواقع والمأمول، ورقة للدكتور هاشم الأهدل، انظرها في موقع المسلم: http://almoslim.net/spfiles/tadabbur/paper7.htm

فحلقات التحفيظ من الأهمية بالمكان الذي لا يُجهل، وهي من أهم الطرق للتدبر، ولكن نريد أن نخطوَ بها خطوة مهمة إلى الأمام، نريد لها أن تؤدِّي دوراً أكبر وأعظم وأجلّ من مجرد إخراج الحفظة، نُريد أن نرى منها ابن عباسِ زمانِنا وابن مسعود عصرِنا، وابن عمر يومنا، نريدها أن تحمل مشاعل الفهم والتدبّر لتُنير بها عقول أمتنا، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة] نريدها أن تُنير الدرب بالحفظة والمفسّرين والمتدبرين، ليزداد النور نوراً والحق ظهوراً، ويقوى السَّيرُ إلى الغايات العظمى التي ترقبُها الأمة في فجرها المنشود، الذي لن يبزغَ إلا إذا أخذت الأمة كتاب ربها بقوة، وأقبلت عليه تلاوةً وفهماً وعملاً وتحكيماً وتدبراً ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة].

ما الّذي يجعلنا لا نتأثّرُ بالقرآن؟

لأننا شُغلنا عن تدبّره، وإن تلوناه بين فترة وأخرى، يقول الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، يعني: إنّما كانت الغاية من إنزاله هو التّدبّر والعمل.

إنَّ هذه الحال مخالفةٌ للحال التي أمر الله عز وجل بقراءة القرآن عليها، فقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل]؛ أي بتمهُّل وترسُّل، قال ابن

كثير: «فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره»[1]، فجعلَ الفهم والتدبر علةً للأمر بقراءته مرتلاً، وقال الشوكاني: «أي: اقرأه على مهل مع تدبُّر»[2]، فجعل التدبر داخلاً في معنى الترتيل.

ومن جهةٍ أخرى، فيُخشى أن تكون حالُ من يقرأُ ويحفظ دون تدبُّر كحال من سبقنا من الأمم التي عاب الله عليها مثل ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، قال ابن عاشور رحمه الله: «قيل: الأمانيُّ القراءة، أي لا يعلمون الكتاب إلا كلماتٍ يحفظونها ويدرسونها لا يفقهون منها معنىً، كما هو عادةُ الأمم الضالَّة إذ تقتصر من الكتب على السَّرد دون فهم»[3].

فينبغي أن تكون حالُ تالي القرآن مع كتابِ الله عزَّ وجلَّ، كما قال الآجُرِّي رحمه الله: «يتصفَّح القرآن؛ ليؤدِّبَ به نفسه، لا يَرضى من نفسه أن يؤدِّيَ ما فرض الله بجهل، قد جعل العلم والفقه دليله إلى كل خير، إذا درس القرآن فبحضور فهم وعقل، همَّته إيقاعُ الفهم لما ألزمه الله: من اتِّباع ما أمر،

(١) تفسير ابن كثير: ٨/ ٢٥٠.

(٢) فتح القدير: ٥/ ٤٤٣.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ١/ ٥٧٥.

والانتهاء عمَّا نهى، ليس همته متى أختم السُّورة! بل همته متى أستغني بالله عن غيره؟ متى أكون من المتقين؟ متى أكون من المحسنين؟ متى أكون من المتوكلين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أكون من الصادقين؟ متى أكون من الخائفين؟ متى أكون من الرَّاجين؟ متى أزهد في الدنيا؟ متى أرغب في الآخرة؟ متى أتوب من الذنوب؟ متى أعرف النعم المتواترة؟ متى أشكره عليها؟ متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أفقه ما أتلو؟ متى أغلبُ نفسي على ما تهوى؟ متى أجاهدُ في الله حق الجهاد؟ متى أحفظ لساني؟ متى أغضُّ طرفي؟ متى أحفظ فرجي؟ متى أستحيي من الله حق الحياء؟ متى أشتغل بعيبي؟ متى أصلح ما فسد من أمري؟ متى أحاسبُ نفسي؟ متى أتزوَّد ليوم معادي؟ متى أكون عن الله راضياً؟ متى أكون بالله واثقاً؟ متى أكونُ بزجر القرآن متعظاً؟ متى أكونُ بذكره عن ذكر غيره مشتغلاً؟ متى أحبُّ ما أحبَّ؟ متى أُبغضُ ما أبغض؟ متى أنصحُ لله؟ متى أخلص له عملي؟ متى أقصر أملي؟ متى أتأهَّب ليوم موتي وقد غُيِّبَ عني أجلي؟ متى أعمر قبري، متى أفكر في الموقف وشدَّته؟ متى أفكر في خلوتي مع ربِّي؟ متى أفكر في المنقلب؟ متى أحذر مما حذَّرني منه ربِّي، من نارٍ حرُّها شديدٌ، وقعرُها بعيدٌ، وعمقها طويل» ... إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ : «فالمؤمن العاقل

إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة، يرى بها ما حسُن من فعله، وما قبُح منه، فما حذَّره مولاه حذِره، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغَّبه فيه مولاه رغب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة، فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً وأنيساً وحرزاً، ومن كان هذا وصفه، نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه، وعلى ولده كل خير في الدنيا وفي الآخرة»[1].

(١) أخلاق حملة القرآن: ١/ ٢٧.

أهمية تدبّر القرآن ومكانته.

تبدو أهمية تدبّر القرآن ومكانته، من خلال إدراك الحقائق الآتية:

أولاً: أنّ الغاية المقصودة من إنزال القرآن هي التّدبُّر والعمل.

يقرّر ابن قيّم الجوزيّة هذا المعنى، مؤكّداً على أنّ التدبّر والتَّأمُّل في القرآن، هو الغاية من تنزيله: «لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾ [المؤمنون] وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾ [الزخرف]. قال الحسن: (نزل القرآن ليُتدبَّر ويُعمل به)»[1].

ثانياً: التّدبُّر منهج النَّبي ﷺ.

فالأحاديث تدل على عنايته بالتدبر، ويتأكد ذلك في رمضان، كما روى ابْن عَبَّاس رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٥١.

الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنْ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»[1]، لم يقل أنّ جبريل كان يضبط عليه القرآن، بل يدارسه، والمدارسة تختلف عن التلاوة أو الضَّبط، فهي تتعلق بالحروف والمعاني. ولذلك في الحديث: «ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينه ..»[2] فجعل المدارسة غير التلاوة، والتدبر من المدارسة.

ثالثاً: تدبُّر القرآن منهج سلف هذه الأمة:

لقد كان للسَّلف عامة والصَّحابة منهم خاصة، منهج قويم في حفظ القرآن وتعلّمه، منهج أخذوه من النبي ﷺ ، فعن عثمان وابن مسعود وأُبي بن كعب رضي الله عنهم أنَّ رسول الله ﷺ كان يُقرؤهم العشرَ فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى، حتى يتعلّموا ما فيها من العمل، قال: فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»[3].

وقد كان اهتمام السلف بالقرآن تدبراً وتفسيراً، اقتداءً منهم بالنبيِّ ﷺ الذي كان لا يمرُّ على القرآن إلا متفهماً متدبراً، وقد سمع عليه الصلاة والسلام امرأة ذات ليلة تقرأ: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ ﴾ [الغاشية](١) ،

(١) صحيح البخاري: (١/ ٨) ح (٦).

(٢) صحيح مسلم (٢٦٩٩).

(٣) تفسير القرطبي، ١/ ٣٩، والطبري ١/ ٧٤.

فقام يستمع ويقول: «نعم قد جاءني»[١]. وقد ثبت أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام: «كان إذا مرّ بآية رحمةٍ سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوّذ»[٢]، وعن حذيفة ﵁ قال: «صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يُصلِّي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسّلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ»[٣].

وقد ورد عنه ﷺ أنه قام الليل كلّه بآيةٍ واحدةٍ، يتلوها ويُعيد تلاوتها مرّةً بعد أخرى، متفكّراً في معانيها ودلالاتها، ورد ذلك فيما رواه أبو ذرٍّ ﵁، قال: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾»[المائدة][٤].

وبكى ﷺ حين قرأ عليه ابنُ مسعود﵁ من سورة النساء كما في صحيح البخاري، قَالَ: «قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ،

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٩٢٥١)، وهو مرسل.

(٢) رواه أحمد، ٥/ ٣٨٤، وابن خزيمة ١/ ٢٧٢ (٥٤٢).

(٣) رواه مسلم ١/ ٥٣٦ (٧٧٢).

(٤) رواه أحمد ٥/ ١٤٩ (٢١٣٦٦) وحسنه الأرناؤوط.

آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ قَالَ: حَسْبُكَ الآنَ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»[1]، فهل يكون ذلك من غير تدبّر؟

وكان ﷺ يدعو الأمة إلى التدبّر وفهم معاني القرآن، فحين نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران]، قال: «ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها»[2].

فلماذا لا نتدبَّر القرآن! وقد كان محمد ﷺ يتدبَّره، وقد كانت لنا فيه أسوة؟! ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب].

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٥٠).

(٢) رواه ابن حبان ٢/ ٣٨٦ (٦٢٠) قال شعيب الأرناؤوط: إسناده على شرط مسلم.

رابعاً: تدبّر القرآن واجباً على كلِّ مسلم.

يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]، قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى آمرًا بتدبُّر القُرآن وتفهُّمه، وناهياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطْبَقَة لا يخلص إليها شيء من معانيه»[1]، وهذا يتضمن تحذيراً شديداً لمن يُعرض عن تدبر كتاب الله؛ كي لا تكون حاله كحال من ذُكر، والعياذ بالله، ومقتضى ذلك وجوب التدبر، وقد نصّ عدد من العلماء على وجوب التدبر كما سيأتي[2].

خامساً: تدبُّر القرآن هو العاصم من شُبهات الطاعنين في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، قال ابنُ كثير: «يقول تعالى آمرًا عباده بتدبر القرآن، وناهياً لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبرًا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضادّ ولا تعارض؛ لأنه

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٢٠، تفسير آية سورة محمد: ٢٤.

(٢) ص ١٠٩.

تنزيلٌ من حكيم حميد، فهو حقٌّ من حق ... ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لو كان مفتعلاً مختلقاً، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي: اضطراباً وتضادًّا كثيرًا. أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله. كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم، حيث قالوا:﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] أي: محكمه ومتشابهه حقٌّ؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذمَّ الزائغين»(١). وهذا الأمر يُعطي تدبُّرَ الكتاب أهميةً عظيمة، إذ به يعصم الله سبحانه وتعالى العبدَ من الانخداع بشبهات الطاعنين في القرآن الكريم، فيعلمَ أنها أوهى من نسج العنكبوت، ولهذا نراها لا تروج إلا على من قلَّ علمُه بالقرآن الكريم وضعُف أو انعدم تدبُّره لآياته(٢).

سادساً: أنّ القرآن مستودعٌ للعلوم والمعارف، والتّدبّر مفتاحه.

يقول العلامة السعدي رحمه الله: «تدبُّر كتاب الله مفتاحٌ للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كلُّ خير وتُستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٦٥، تفسير آية النساء: ٨٢.

(٢)يراجع: كتاب: (دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب)؛ للعلامة/ محمد الأمين الشنقيطي.

وترسخ شجرته. فإنه يُعرِّف بالربِّ المعبود، وما له من صفات الكمال وما يُنزَّه عنه من سمات النَّقص، ويُعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفةَ أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويُعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلَّما ازداد العبد تأمُّلاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة؛ لذلك أمر الله بذلك وحثَّ عليه وأخبر أنه المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى:﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾[محمد]" [(١)].

ويقول رحمه الله: «﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبَّر الناسُ آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحِكَمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تُدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ أي: أولو العقول الصَّحيحة، يتذكرون بتدبرهم

---

(١) تفسير السعدي ١/ ١٨٩، تفسير آية النساء: ٨٢.

لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على أنه بحسب لبِّ الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب»[1].

العلاقة بين تدبُّر القرآن وتفسيره.

وأما التدبر والتفسير فالفرق بينهما أن التدبر أوسع من التفسير، فالتدبر يحصل من كل مسلم حتى ولو لم يمتلك آلة تؤهله لأن يُفسّر القرآن ويُبحر في غوامضه، بل كلُّ مسلم مأمور أن يتدبر القرآن وليس كل مسلم مأموراً أن يفسّر القرآن، إذ إن للتفسير شروطاً، وللمفسِّر مؤهِّلات لا بدّ من توفّرها فيه.

وعليه؛ فبين التدبر والتفسير عموم وخصوص، من جهة أن التدبر أعم من حيث حصوله لكل مسلم، والتفسير أخص لمن يملك أهليته، كما أن التفسير شامل للتدبر الذي هو جزء من علم التفسير.

وإذا وقع المسلم على معنى في كتاب الله ولم يكن من أهل التفسير فلا ينشر ذلك، لأن القول على الله بغير علم من أعظم الذنوب وأكبر المعاصي،

(١) تفسير السعدي ١/ ٧١٢، تفسير آية ص: ٢٩.

ولكنه يحتفظ بهذا المعنى دون أن يشيعه حتى يستوثق من صحته عند أهل العلم[1].

وقد روي عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه أنه قال: «التَّفسيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ العَرَبُ مِنْ كَلاَمِهَا، وَتَفْسِيرٌ لاَ يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتفسيرٌ يَعْلَمُهُ العُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللهُ تعالى ذكرُه»[2].

والتّدبُّر كثيراً ما يتعلق عند العامة بالتّفسير الّذي يمكن أن يعرفه كلُّ أحدٍ من العرب، لو استفرغ وُسعه في الفكر، وهو يقع ضمن الوجهين الأوَّلين، أي: «وَجْهٌ تَعْرِفُهُ العَرَبُ مِنْ كَلاَمِهَا، وَتَفْسِيرٌ لاَ يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ»، وقد ذكر بعض المشايخ من ذلك أنه تجادل رجلان فيما يفعله الجهال عند القبور من دعاء الموتى، وطلب الحاجات منهم، فقال أحدهما: هذا شرك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ [الجن]، فقال الآخر: ما يجوز لمثلي ومثلك أن يفسر القرآن! فسكت الرجل، وكان حليمًا وهو في بيت الآخر، فخرجت عليهم جاريةٌ جميلة، فقال: يا فلانُ من هذه؟ قال: بنتي. فقال: لو تزوجتَهَا. فضحك عليه، وقال: أتزوَّج بنتي!

---

(١) يُنظر: تفسير ابن كثير ١/ ١٤.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٧٥.

فقال الرجل: هل في ذلك بأس؟ فقال: ما تسمع قول الله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ ؟! فقال: إنك تقول: ما يجوزُ لمثلي ومثلك أن يُفسِّر القرآن!

والمقصود: أنَّ من كان لسانه عربيًا، وفطرته مستقيمة، فإنه يعرف معنى القرآن بمجرد سماعه، يقول أحد طلاب العلم: وكثيرًا ما يسألني الأعراب وغيرهم عن مسائل غامضة في الأيتام، فأتلو عليهم قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ ﴾، فيعرفون الجواب بمجرد التلاوة، دون تفسير.

بيد أن مفهوم التدبر غير منحصر في هذا النوع من التفسير، بل قد يسمع العامي ما لا يعلم تفاصيل تفسيره بل ولا معاني كلماته كلها، ولكنه يدرك أن السياق سياق زجر فينزجر ويحصل له الخوف من الله، أو يدرك أن السياق سياق وعد ونعيم فينشط للطاعة ويحصل له إقبال عليها، وهذا كثير.

العلاقة بين تدبُّر القرآن والتَّفسير بالرأي.

لقد عُلم يقيناً عند كلّ مسلم ما للقرآن من حرمة ومكانة عظيمة، فلا يصح أن يَتجاسر على القول فيه وبيان معانيه وأحكامه ومطلقه ومقيده ومجمله ومبينه إلا من وُهب علماً واسعاً وفقهاً راسخاً، فالقرآنُ كلام الله وما

أعظم أن يخوض في كلام ربّ البرية من لا يُحسن الكلام فيه، ولذا فقد تناذر المسلمون حمى الكتاب العزيز، إذ إن من المعلوم بالضرورة كونه ليس كلأً مباحاً ولا حمى مستباحاً لكل من هب ودرج.

بل كان الواحد من السلف تعرض له الآية فيأبى أن يقول فيها معنى ربما ظهر له منها، لكن لم يبلغ حدَّ اليقين والقطع به، ودافعهم في ذلك ما نصَّت عليه الآيات البينات التي تنهى وتزجر عن القول على الله بغير علم، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف] فجعل الله تعالى القول عليه بغير علم فوق الشرك به شناعةً وجُرماً ووزراً، وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يونس] فبين سبحانه وهو أصدق القائلين أن الفلاح محجوب عن من يفتري عليه، ومن أعظم صور الافتراء على الله القول في كلامه على غير هدى ولا بصيرة.

وقد عاب الله على أهل الكتاب يوم بدّلوا كلامه وحرّفوا معانيه فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ [آل عمران]، وقال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ [البقرة]، ولقد جاء القرآن مبيناً أن من أسباب قساوة قلوب أهل الكتاب تحريفهم معاني كلام الله الذي أنزله إليهم على ألسنة رسلهم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ [النساء]، وإن هذه العقوبة التي عاقب الله بها أهل الكتاب لما تجاسروا على كلامه تحريفاً وتبديلاً وتزويراً ليست قاصرة على أولئك السابقين، بل تشمل من اتصف بصفتهم وعمل عملهم.

ولقد أقبلت هذه الأمة على كتاب ربها متوقِّفةً في معانيه على ما قال لها نبيُّها ﷺ وأصحابه الكرام، فسعدت زماناً وأقامت ما أُمرت، ثم تقلبت وتنكّبت الصراط المستقيم والطريق القويم لما جاء خَلَفٌ يقولون في القرآن بأهوائهم، ويخوضون فيه بآرائهم فضلّوا عن الهدى المستقيم والطريق القويم، وأضلّوا غيرهم عن البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

لقد كان الصحابة الكرام يسألون النَّبيَّ ﷺ عمَّا أشكل عليهم من فهم القرآن فيبين لهم النبي ﷺ كلام ربهم وهو أعلم الخلق به، ثم جاء التابعون فسألوا الصحابة عما بيّن لهم النبي ﷺ وعما لم يبينه لهم، فوجدوا منهم التأويل الصحيح لكونهم أقرب لمشكاة النبوة وأدنى أن يعرفوا مراد ربنا تعالى، فهم تلاميذ رسوله ﷺ ، وهكذا تابعت هذه الأمة القرآن على الهدى والخير، حتى نجم قرن التأويل والرأي الفاسد، فنفى أولئك صفات لله تعالى وعطّلوها وأوّلوها ، ولم يسلكوا في فهم الآيات الواردة فيها مسلك السَّلف الصَّالح، وعمدوا إلى أفهامهم، فكانت من أسقمَ الأفهام، ولجؤوا إلى عقولهم فكانت من أضلَّ العقول.

إن تفسير القرآن بالرأي لا ينبغي أخذُه إلا إذا قامت عليه بينات لا تعارض المأثور، والأخذ بالمأثور متى خالف الرأي هو الواجب، فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً ويبيّن بعضه بعضاً، ثم ما جاءت به النقول الصحيحة عن النبي ﷺ ، فما علم كلام الله أحد من البشر كرسول الله ﷺ ثم ما جاء عن الصحابة الكرام الذين حضروا نزول القرآن وعرفوا فيم نزل ولم نزل، فكانوا أعرف جيل به، وأعمل الناس بما به أمرهم، وأبعدهم عما عنه نهاهم، ثم جاء

بعد ذلك العلماء الراسخون والأئمة المجتهدون فقالوا في القرآن مهتدين بالسلف الصالح فوفقّوا وسُدّدوا.

أما القائلون بآرائهم المزعومة التي لا تستند إلا إلى الأهواء فلا مكان لأقوالهم تلك إلا في مزابل الأفكار، ولقد أمدّ الشيطان جنده، فقالوا في القرآن بما لا يتفق مع مقاصد الشرع، ولا تحتمله اللغة العربية التي نزل بها القرآن، بل وكثير من تلك الآراء تتصادم وصريح القرآن وصحيح السنة ومقاصد الشريعة، وقد أشار إلى أشياء من هذا الإمام عثمان بن سعيد في رده على المريسي ورده على الجهمية.

وترتيبًا على ما سبق فإن أمر التفسير أشد خطراً من أمر التدبر، لأن المفسر يُعيِّن مراد الله جل وعلا من كلامه ويقرره لغيره، أما المتدبر فلا يسمى متدبراً إذا لم يكن متابعاً لدلالات القرآن، بل قد يحصل له قدر من التدبر وإن لم يفهم المعاني التفصيلية التي يبحث فيها علم التفسير، ولهذا اشتد نكير أهل العلم على من فسر كتاب الله برأيه، فقالوا: من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ، قال الترمذي: «هكذا روي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، أنهم شدَّدوا في هذا، في أن يفسر القرآن بغير علم»(١)،

(١) سنن الترمذي ٥/ ٢٠٠.

وقال ابن كثير رحمه الله: «فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام»[1]، ثم ذكر رحمه الله عدداً من الآثار عن السلف يتحرَّجون فيها من تفسير آي القرآن، وقال: «فهذه الآثار الصَّحيحة وما شاكلها عن أئمَّة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا، فلا حرج عليه؛ ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه»[2]. فأمر التفسير ليس لكل أحد، إنما هو لمن أوتي أدواته من أهل العلم، وأما التدبر فأمره أوسع حيث أمر الله به الجميع -حتى الكفار والمنافقين- ونعى على من يعرض عن تدبر آيات القرآن الكريم.

فلهذا ينبغي التنبّه إلى أن تدبر المسلم العامِّي للقرآن الكريم فيما يقف تدبره على فهم معانيه، ينبغي أن يكون منضبطاً بتفسير الأئمة الثقات له، فإن عرضت له فكرة أو خاطرة حول آية ما ولم يكن متيقناً أنَّ ما عرض له لا يخالف التفسير، فلا ينبغي له أن يصرح بهذا الرأي الذي وقع عليه مباشرة، ولا أن يزعم أن ما ظهر له هو تفسير الآية أو معناها، لأن القول على الله بغير

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٣.

علم من أعظم الذنوب وأكبر المعاصي، ولكنه يحتفظ بهذا المعنى دون أن يَشيعه حتى يستوثق من صحته عند أهل العلم، وإلا كان هذا الذي يحسبه تدبرًا ضرباً من التفسير بالرأي، فتحاً لباب شر مستطير كحال بعض المنحرفة من الزنادقة وأصحاب التفسيرات الباطنية، فإنهم أخذوا من الآيات معان لا تمت للغة القرآن ولا لأحكام الشريعة بصلة اتباعاً لأهوائهم وما تمليه عليه شياطينهم، وزعموا أن ما هم عليه هو لباب الحقيقة فضلُّوا وأضلُّوا، كما يفعل بعض أصحاب مدرسة التفسير الإشاري، وكما فعل الرافضة والباطنيون وغيرهم من أتباع الهوى.

العلاقة بين تدبر القرآن وفقه السنة.

لفهم السنة أثر عظيم في فهم وتدبر القرآن، فهي شارحة له، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل]،والسنة داخلة في عموم قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم]، ولأن هناك من زعم عنايته بالقرآن الكريم لكنه غفل عن السنة فهمًا وتدبرًا وعملًا، وهذا مسلك خاطئ، ومنهج ضال ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]، فكيف نأخذ ما جاء به دون فهم وتدبر وعمل، ولذا فمن يسمون أنفسهم بـ(القرآنيين) فرقة ضالة

منحرفة كاذبة، فلو أخذت بالقرآن حقيقة لأخذت بالسنة لزومًا ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، لذلك كان من المهم الحديث عن فقه السنة، وخاصة أن السنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، وهي تشمل أقوال النّبيّ ﷺ وأفعاله وتقريراته، وقد حوت في طيَّاتها شرحاً وبياناً لكثير من آيات القرآن الكريم وأحكامه، ببيان مجمله وتقييد مطلقه وتخصيص عمومه، وقد قرر غيرُ واحد من أهل العلم أنَّ السنة قاضية على الكتاب، بمعنى أنها كاشفةٌ وموضحة لما فيه مما قد يحتمل وجوهاً متعددة، وعلى ذلك فإنَّ فهم القرآن الكريم وتدبره تدبراً صحيحاً، لا يمكن أن يتم بمعزل عن السنة في كثير من الأحيان، وكمثالٍ على ذلك حديثُ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الصحيحين، قال: «لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام]، شقَّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله أيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾؟» [لقمان][1]، فقد فهم الصحابة رضي الله عنهم الظلم في الآية الأولى على عمومه، فبين لهم عليه السلام أن الأمر ليس كذلك، بل المقصود نوع

(١) متفق عليه: البخاري (٣٢٤٦)، مسلم (١٢٤).

مخصوص من الظلم وهو الشرك، وقبل هذا البيان من رسول الله ﷺ صعب أن يعين أخذهم من تلقاء أنفسهم أن المراد هو الشرك، فإذا كانت هذه حالهم وحاجتهم للسنة لفهم القرآن الكريم وهم أعلم الأمة، فمَن دونهم ممن جاء بعدهم أولى بهذا الاحتياج.

ومما يدلُّ على أهمية فقه السّنّة كذلك: أنها تستقل بالتشريع وبيان الأحكام الشرعية مثلها في ذلك مثل القرآن الكريم بدليل قول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]، وقوله عليه السلام: «ألا إني أوتيتُ القرآن ومثله معه»(١)، وذكر الشَّوكانيُّ أنَّ هذا مما اتَّفق عليه من يُعتدُّ به من أهل العلم وأهل التَّحقيق(٢)، على أنَّ هذا الأمر ليس قاصراً على الأحكام الشرعية وتحليل الحلال وتحريم الحرام، بل يشمل كل ما تناولته السنة الصحيحة، من الأحكام والعقائد والأخبار والأخلاق والفضائل وغيرها.

ومما يدلُّ على أهمية فقه السنة قوله عليه السلام في حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: «نضَّر اللهُ امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه، فرُبَّ حامل فقه إلى من هو

(١) مسند أحمد بن حنبل ٤/ ١٣٠ (١٧٢١٣)، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٢) انظر إرشاد الفحول ١/ ٦٩.

أفقهُ منه، وربَّ حامل فقهٍ ليس بفقيه»[1]، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «فرُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ»[2]، فهذا المبلَّغُ معه من العلم والفهم والقدرة على الاستنباط ما ليس مع الأول، وهذا كلُّه يحتاجُ إلى إعمال فكر ونظر حرص عليه رسول الله ﷺ حتى دعا لمن يُبلغ كلامه مثلَ هذا الرجل بأن يُنضر الله وجهه، فإن تعدَّى بتأمُّله شرح ألفاظ الحديث إلى بيان مآلات كلام النَّبيِّ ﷺ وعواقبه، فهذا هو التدبر المقصود.

الأسباب المعينة على فقه السنة:

هناك العديد من هذه الأسباب، نذكر منها:

- معرفةُ منزلة السنة ومكانتها في الإسلام.
- إدراكُ تأثير فقه السنة على تدبر الكتاب.
- استحضارُ القلب عند القراءة للحديث.
- اختيار الزمان والمكان المناسبين ليكون أصفى للذهن وأحضر للقلب.

(١) سنن أبي داود ٢/ ٣٤٦ (٣٦٦٠)، وصححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٣٤ (٢٦٥٧)، وصححه الألباني.

- القراءة المتأنية المترسِّلة، فسرعة القراءة قد تؤدي لفهمٍ غير مراد في الحديث.

- تكرار النظر وتقليب الفكر في الحديث موضع التّفقُّه.

- الاستفادة من شروح الحديث، مما فتح الله به على العلماء، كابن حجر في شرحه للبخاري، والنووي في شرحه لمسلم، أو قراءة الحديث على أحد من العلماء ومناقشته.

- ملاحظة كون كثير مما جاء في السنة يتعلق بأحداث كانت تجري في مجتمع المسلمين ، ومحاولة تنزيل ذلك على واقع المتدبر، دون تكلّف وتعسف أو جزم ويقين، حيث زلت بذلك ألسن وعقول.

مثال لفقه السنة:

روى الإمام أحمد في المسند واللفظ له، والإمامان البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أنس بن مالك ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ يدخل علينا، وكان لي أخٌ صغير، وكان له نُغير يلعب به، فمات نغره الذي كان يلعب به، فدخل النبي ﷺ ذات يوم فرآه حزيناً فقال له: ما شأنُ أبي عمير حزيناً؟ فقالوا: مات نغره الذي كان يلعب به يا رسول الله. فقال: «أبا عمير! ما فعل

النُّغير؟»[(١)]، فهذا الحديث معناه واضح لا يحتاج لكثير شرح، خلا كلمة نغر وهو نوع من الطيور، والنُّغير تصغيره، وبرغم ذلك فمن تفقّه رواياته من العلماء خرج بكثير من الفوائد، قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وفي هذا الحديث عدة فوائد جمعها أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الطبري المعروف بابن القاص الفقيه الشافعي صاحب التصانيف في جزء مفرد ... وذكر ابن القاصِّ في أول كتابه: أنَّ بعض الناس عاب على أهل الحديث أنهم يروون أشياء لا فائدة فيها، ومثَّل ذلك بحديث أبي عمير هذا، قال: وما درى أنَّ في هذا الحديث من وجوه الفقه وفنون الأدب والفائدة ستين وجهاً.

قال الحافظ: ثم ساقها مبسوطةً، فلخصتها مستوفياً مقاصده، ثم أتبعتُه بما تيسر من الزوائد عليه»[(٢)]، ثم سرد الحافظ ﵀ هذه الفوائد ومنها: «جوازُ الممازحة وتكريرُ المزح، وأنها إباحة سنة لا رخصة، وأنَّ ممازحة الصبي الذي لم يُميِّز جائزة، وتكريرُ زيارة المزوح معه، وفيه ترك التكبر والترفع»[(٣)]، ولولا الإطالةُ لذكرت كلامه بنصه، ولكن الهدفُ أن نبين أثر التفقّه لهذا

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣/ ٢٨٨ (١٤١٠٣)، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٥٨٤.

(٣) المرجع السابق.

الحديث -الذي ظن بعض من لا علم عنده ولا أدب أنه لا فائدة من ذكره- كي نقيس عليه.

هل التدبر خاص بالعلماء؟

قال بعض العلماء: إن التدبر لا يكون إلا للعلماء كالتفسير، وقد رد عليهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في كتابه أضواء البيان، عند تفسير قوله سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤]، رداً مفحماً، وهو طويل يرجع إليه هناك[1]، وملخصه: أن الله عاتب الكفار والمنافقين الذين لا يتدبرون القرآن، ومعلوم أن الله لا يكلف إلا بما يطاق، فإذا كان المنافقون والكفار مأمورين بالتدبر، وهم قادرون عليه، فغير العلماء من المسلمين أقدر على التدبر من الكفار والمنافقين إذا كانوا يعرفون اللغة العربية؛ لأنهم أعظم فهماً من أولئك، ولذا فهم معاتبون من باب أولى إذا لم يتدبروا؛ لأنهم قادرون على التدبر، والقول بأن التدبر جائز بل مطلوب من الكفار والمنافقين، ومحرم على غير العلماء من المسلمين قول ضعيف لا تسنده الأدلة ولا الواقع، بل إن الأمر خلاف ذلك، كما بينت فيما مضى.

(١) تفسير آية سورة محمد (٢٤)، ٧/ ٢٥٦ وما بعدها.

وهذا القول من هذا الشيخ العلامة هو الصحيح، وهو ما تؤيده الأدلة النقلية والعقلية، لكن ضمن ما تم التنبيه عليه في هذا الكتاب، والله أعلم.

الفرق بين التَّأمل والتَّدبر والتعقل والتفكر ومعرفة المعنى:

إن تأمل القرآن هو كما قال ابن القيم: «تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله»[1]، فهو إذن يشتمل على ثلاثة أمور:

١ - رؤية معانيه ومراميه بجلاء ومعرفتها بوضوح.

٢ - جمع الفكر على تدبره.

٣ - جمع الفكر على تعقله.

فابن القيم جعل مطالعة المعاني أمراً، والتفكر أمراً ثانياً، والتعقل شيئاً ثالثاً، وهي معان متقاربة إذا اجتمعت حصل التأمل.

أما التدبر فقد قيل في معناه: «هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة»[2].

ويقول بعضهم في تعريف التدبر: «وهو عند أهل العلم بكتاب الله جل وعلا: العمل على تحقيق وتحديق النظر في ما يبلغه المعنى القرآني المَدِيدُ من

(١) مدارج السالكين، ١/ ٤٥١.

(٢) قواعد التدبر الأمثل للميداني: ص١٠.

درجات الهداية إلى الصراط المستقيم. وهذا نظر لا يتناهَى، فإن المعنى القرآني له أصل يبدأ منه، ولكن منتهاه لا يكاد يبلغه أحدٌ من العباد، فصاحب القرآن الكريم في سفر دائم طلبًا للمزيد من المعنى القرآني.

فكلّ تَعَقُلٍ وتَفَكُّرٍ وتَفَقُّهٍ وتَفَهُّمٍ للبيان القرآني لا يحقق العلم بدرجة من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم لا يكون من تدبر القرآن الكريم في شيْءٍ»[1].

(١) العزف على أنوار الذكر، د. محمد توفيق محمد سعد: ص١١.

ضوابط التدبر:

مع أهمية التدبر والحاجة إليه فإنه يجب على المتدبر أن يراعي أمورًا عدة فيما يتوصل إليه من فتوحات ومعانٍ تدبرية، ومن أهم ما تجب مراعاته عند التدبر، وبخاصة من يريد نشر تدبراته:

١. البعد عن المعاني التي قد تخالف العقيدة الصحيحة، كما يفعل المبتدعة وأصحاب المدارس العقلية والتنويرية.

٢. موافقة ما توصّل إليه للّغة العربية الصحيحة، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين.

٣. البعد عن الإغراب والتقعر في الاستنباط، فالتدبر للبيان وتقريب المعنى لا للغرائب والشذوذات.

٤. الحذر من التفسيرات الباطنية التي لا يحتملها ظاهر الآية، كما هو منهج الرافضة والباطنيين.

٥. ليس من التدبر ليّ النصوص وتعسف الاستدلال، كأن يكون لدى الإنسان مسألة ما يبحث لها عن دليل، فيأتي لآية يجعلها حجة لفكرته، فالقرآن ليس مطواعًا للأهواء، ولا خاضعًا لأهل الباطل وسابقي التصور.

٦. أن لا يخالف ما توصّل إليه من معان المعتبر من أقوال أهل التفسير.

ومن لم يستطع أن يطبّق هذه الضوابط لقلة علمه، فليرجع لأهل العلم في عرض ما توصل إليه؛ ليبينوا له الصواب من الخطأ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]، ولأهمية ضبط التدبر أذكر هنا كلمة ضافية لأخي الشيخ/ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ألقاها في افتتاح أول دورة للتدبر[١]، فكان مما قال: « ..وابن القيم رحمه الله في كتابه الفوائد وفي غيره أطنب في ذكر أصول هذا المنهج بما يجعل القلوب خالصة من رؤية الدنيا في تلاوة القران، وهذا المطلب المهم يحتف به مزالق، فإن كلمة التدبر كلمة أخص من التفسير وأخص من معرفة المعاني، فهي كلمة تحتاج إلى ملكة علمية تجمع ما بين فهم الاعتقاد الصحيح وفهم أصول التعامل مع القرآن الكريم، ذلك لأننا لا نريد أن يكون التدبر ناتجاً عن مسرح من مسارح الفكر، فنقع في نوع من الإثم حيث يقول البعض في القرآن برأيهم، ومن قال في القرآن برأيه فقد أخطأ ولو أصاب، فالمطلوب من الإخوة الذين يدرسون هذا الموضوع أن يؤسسوا لفهم قواعد السلف الصالح في التدبر، لأن الفرق العقدية المختلفة

(١) ألقاها في ختام ورشة العمل التي كانت تحت عنوان: (التدبر في حلق ومدارس ودور تحفيظ القرآن الكريم) بالتعاون مع مركز تدبر بديوان المسلم في يوم الأحد الموافق ٥/ صفر/ ١٤٣٢هـ.

السابقة، وأيضاً الفئات الموجودة حالياً الفكرية العقلانية والتنويرية وغيرها، الكل يقول دخلنا إلى القرآن من ميدان التدبر، والتدبر أوسع من معرفة التفسير حسب ما يطرحون، وهذا صحيح من جهة لكنه من جهة أخرى محتف بالمخاطر؛ لأن المتدبر لا ينزع في تدبره إلى محض رأي يراه، وقد يؤول الأمر إلى أن يجعلوا القرآن مطواعاً لأفكارهم، فتؤسس أفكار ثم يؤتى بالقرآن ويستدل به على تلك الأفكار نزعاً إلى مفهوم التدبر، وهذه مزلة كبيرة ومزلة قدم لا يصلح أن تغفل من الاهتمام حين الحديث عن التدبر. المدارس الفكرية في تفسير القرآن الكريم متعددة، فهذا نزع إلى تفسير بالرأي المجرد أخذاً من التدبر، وهذا نزع إلى تفسير علمي مجرد بغرض ذكر الإعجاز ونحوه بنزعة إلى التدبر كما يقولون، وآخر نزع إلى مدرسة سلوكية صوفية أخذاً من التدبر، فالذين أخذوا الإشارات الصوفية في السلوك الصوفي أكثر استدلالاتهم من القرآن وقالوا نزعنا إلى التدبر، فإذاً موضوع التدبر وعبادة التدبر مطلوبة وواجبة، لأن الله جل وعلا أمر بها حيث ذم المشركين والمنافقين بعدم تدبر القرآن، وهنا فرق ما بين التدبر وما بين التعلم والتفسير والعمل ..».

مقاييس قرآنيَّةٌ للتّدبر:

مثلما أنّ هناك مقاييس موضوعيّة، يختبرُ الناس بها مدى وجود عنصرٍ من العناصر في جسمك أو دمك أو عدم وجوده، كذلك ثمّة مقاييس قرآنية، يتمُّ بناءً عليها قياس صلتك بالقرآن، ومدى عمق تأثيره في نفسك، ومدى تدبّرك لمعانيه، وتأثُّرك بها، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال] يبين أنّ شعورك بزيادة الإيمان عند سماعك لتلاوة القرآن، هو دليلٌ على تأثُّرك به، وعلى حسن تدبُّرك له، وبالعكس إذا ألفيتَ قلبك قاسياً عند سماع القرآن يُتلّى، كان ذلك مقياساً دالاً على ضعف صلتك بالقرآن، وعلى حاجتك الماسّة إلى جرعاتٍ من التدبر لمعانيه وآياته.

فمن وجد من نفسه تأثراً، ومن قلبه إقبالاً أو وجلاً، ووجد زيادة في الإيمان إذا تليت عليه آيات الرحمن؛ فليبشر وليؤمِّل خيراً، وإن وجد غير ذلك، فليراجع نفسه كي لا يكون القرآن حجةً عليه.

إذن، هناك علامات تدل قارئ القرآن الكريم، مع نية التدبر، على أنه يسير في الطريق الصحيح بإذن الله، ومنها(1):

---

(١) ينظر مفاتيح تدبر القرآن: ص٩، ١٠ .

١ - اجتماع القلب والفكر حين القراءة، أما السهو والسير في أودية الدنيا أثناءها فليس من سمت المتدبرين لكتاب رب العالمين! بل قال الله تعالى في صفة عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان].

٢ - البكاء من خشية الله وزيادة الخشوع، ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

٣- القشعريرة خوفاً من الله تعالى ثم غلبة الاستكانة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر].

٤ - زيادة الإيمان والفرح والاستبشار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة].

٥ - الإعجاب بما في القرآن الكريم من الفصاحة والبلاغة والحكمة والكمال، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن].

٦ - استخلاص العبر والحكم من القراءة، وإنزالها على واقع القارئ وحاله، فهذا الربط بين القراءة والواقع دليل واضح على التدبر ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ [الأحقاف]، فحضروا ثمّ أنصتوا، وسمعوا ثمّ فقهوا، ثمّ أنذوروا بعد الفهم والتدبر.

٧ - العمل بما في هذا الكتاب من أعظم الأدلّة على تدبر القارئ لما يقرأ، لأن العمل من لوازم التدبر كما سبق ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص]، فالتذكر من آثار التدبر.

أسباب التّدبُّر وموانعه

أسباب التدبر.

يَتساءل كثير من الناس: ماهي الأسباب المُعينة على تحقيق التدبر، فأجيب: من الأسباب التي ينبغي أن يسعى المسلم إلى تحقيقها، حتّى يتسنّى له تحصيل التّدبّر بإذن الله تعالى، ما يلي:

أولاً: تحقيق الإخلاص؛ بل تحقيق التوحيد.

بالبعد عن الشرك الظاهر والخفيِّ، فالشرك لا ينفعُ معه عمل وإن كان ذلك العمل هو تلاوة كتاب الله تعالى ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان]! ومن الشرك إرادة العبد بعمله الدنيا، ومنه كذلك الرياء، فالواجب تمحيص قصد العبادة لله تعالى والتخلص من كل شائبة أو عالقة.

واعلم أنَّ الإخلاص مفتاحُ العلم والفهم ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فاجعل قصدك وهدفك من القراءة والحفظ والتدبر هو التقرب إلى الله سبحانه، واستحضار أن ما تتلوه هو كتابه تعالى ، واحذر أن يكون دافعُك نيلَ مكانة بين الناس، أو الحصولَ على بعض المكاسب الدنيوية والمكافآت البشرية، فالله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صوابًا، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، وفي

الحديث القدسي: «**من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(١).

وكلما حقق المسلم التوحيد، وزاد إيمانه، رأى الفتوحات الربانية في تدبر كلامه وفهم معانيه ودلالاته.

ثانياً: البعدُ عن المعاصي والآثام.

فالقلب المظلم بالمعاصي، والمشغول بالتكالب على شهوات الدنيا، يضيق بنور القرآن الكريم، لإيثاره الدنيا، والمعاصي حاجزٌ عن حفظ القرآن ومراجعته وتدبّر آياته، ووساوسُ الشيطان تصرف عن ذكر الله، يقول تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩]. وقد روى عبد الله ابن المبارك عن الضحاك بن مزاحم أنه قال: «ما من أحدٍ تعلم القرآن فنسيهُ إلا بذنب يُحدثه؛ لأنَّ الله تعالى يقول في ذلك: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشُّورى: ٣٠] ونسيانُ القرآن من أعظم المصائب»(٢)، فالمعاصي هي التي تمرض القلب وتوهنه، وتحجب عنه النورَ والإيمان، وقد قال ابن المبارك رحمه الله:

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٥).

(٢) فضائل القرآن لابن كثير: ص٢٢٢.

رأيتُ الذنوبَ تُميت القلوبَ وقد يورثُ الذلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوبِ حياةُ القلوبِ وخيرٌ لنفسكَ عصيانُها[1]

ثالثاً: اختيار الوقت والمكان المناسبين للتدبر.

مما يعين على حضور القلب وصفاء الذهن والتدبر، حسن اختيار الوقت والمكان

فيالله ما أحلاها وألذَّها قراءةُ الإمام في صلاة الفجر! ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء]،حتى إنه ليحمل المصلي همَّ الخروج من تلك النعمة العظيمة بعد انقضاء الصلاة التي تستوجب من العبد الشكر عليها إذ حُرمها الكثيرون.

أما الذي لا يعطي القرآن إلاّ فضول الأوقات، ولحظات الترقب والانتظار! فجدير أن لا تخلص إلى قلبه كثير من معانيه، والله المستعان.

رابعاً: استغلال الأوقات السانحة في القراءة والتدبر.

مع أهمية ترتيب وقت للتدبر، ومراعاة الوقت المناسب والمكان الملائم، مع ذلك كله ينبغي أن يهتبل المسلم ساعات الفراغ، ويملأ لحظات الخلوة

(١) شعب الإيمان: (٩/ ٨٤) رقم(٦٩١٨).

بخير الذكر تلاوة وتدبرًا، ما أمكن ذلك، أما إذا وجد قلبه مشغولاً، فليشتغل بما هو أنفع له وأخف على نفسه من الذكر أو الدعاء، أو المطالعة.

خامساً: تلاوته يوميًا، ومصاحبته.

ولاسيما في أوقات الفراغ في آخر الليل، وبعيد الفجر، وقبيل الصلوات، ولو خصص المرء وقتاً ثابتاً في يومه بحسب فراغه وحاله، فلا بأس في ذلك بل هذا حسن، فتخصيصه لمقتض صحيح في حقه، غير أن مما ينبغي للمرء أن يتحين الأوقات التي يجتمع فيها قلبه على تلاوةٍ تقوم على أساس التّدبر والتفكر في المعاني، وذلك استجابةً لأمر الله تعالى لنا بأن نقف مع آياته وأن نتدبَّرها، ومن أعظمها آخر الليل وما قارب الفجر ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء].

سادساً: مراعاة أحكام التجويد، والوقف والابتداء.

وذلك بتلقّي القرآن على يدي حافظٍ مُجوِّدٍ لقراءته، أو الضبط على تسجيلات القراء المتقنين، إضافةً إلى الالتزام بآداب التلاوة، فالذي يقرأ القرآن على وجهه حري أن يبارك له فيما يقرأ، وهو أجدر بفهم معانيه، لصحة ابتدائه ووقفه، وإقامة حروفه دليل عناية، تساعد بإذن الله تعالى على إقامة حدوده، ومن تعظيم القرآن الحرص على تصحيح قراءته، والبعد عن

اللحن فيه، وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالأخذ عن المتقنين، وسمى لهم نفراً، وقد ثبت عند مسلم عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنَّا نَأْتِى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما فَنَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ، فَذَكَرْنَا يَوْمًا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: لَقَدْ ذَكَرْتُمْ رَجُلاً لاَ أَزَالُ أُحِبُّهُ بَعْدَ شَىْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ -فَبَدَأَ بِهِ- وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَىِّ بْنِ كَعْبٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِى حُذَيْفَةَ»(١)، وهؤلاء إنما أمر بالأخذ عنهم لإتقانهم، وقراءتهم وفق ما أنزل، ففي مسند أحمد وغيره عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما، بَشَّرَاهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»(٢).

سابعاً: تكرارُ الآيات المقروءة، والتفكر في دلالاتها وسياقها.

فعلى القارئ أن يقف أمام الآية التي يقرؤها وقفة متأنيةً، ثمّ يلقي نظرة تفصيلية في سياق الآية، فإنَّ هذا أدعى لتقليب الفكر والنَّظر فيها، من المرور عليها مرةً واحدة، والانتقالِ لما بعدها، قال ابن القيم: «قراءة آيةٍ بتفكُّر

(١) صحيح مسلم (٦٤٨٨).

(٢) المسند ١/ ٧ (٣٥)، وحسنه الأرناؤوط، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٢٣٠١).

وتفهُّم خيرٌ من قراءةِ خَتمةٍ بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن»[1].

وقد ذكر الشيخ السعدي أن من أهم وسائل التدبر التأمل في معاني الآيات، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة حتى يفتح الله عليك بتدبرها[2]، وهكذا كان يفعل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما نقل عنه تلميذه ابن عبدالهادي رحمه الله [3].

ثامناً: الاستناد في فهم معاني القرآن على أحد التفاسير.

وذلك لأن التفسير يساعد على التدبر، وكلما كان علم المرء بكتاب الله أتم، كان تدبره له أكمل، فعلى من رام تدبر الكتاب العزيز أن يطالع التفاسير، وبعض الناس يذهب أولاً إلى تفاسير تعنى بالدقائق اللغوية، والنكت البيانية، على تخليط فيها، وما هكذا تنال العلوم! بل بالتّدرج فيها شيئاً فشيئاً، فيبدأ بتفسير من أخصر التفاسير وأيسرها، إلى ما هو أكثر

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٧.

(٢) ينظر: تفسير السعدي:١/ ٧١٢.

(٣) العقود الدرية ص٤٣، وسيأتي الصفحة التالية.

تفصيلاً، ولْيختر الكتب التي عرفت بسلامة المنهج وصحة العقيدة كتفسير ابن كثير والسعدي وغيرهما.

تاسعاً: دعاء الله عز وجل والتضرع له.

بسؤاله أن يفتحَ على العبد من فضله، فإنَّ هذا الفتح مِنَّة من الله، بدليل أنَّ الإنسان قد يقرأ الآيةَ فيظهر له من معانيها أشياءٌ وأشياء، مع أنه سبق أن قرأها مرارا فلم يخرج منها بشيء، ولهذا كان سؤال الله تعالى الفهم والعلم، من طريق الراسخين المستجيبين لقول رب العالمين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ١١٤﴾ [طه]، قال ابن عبدالهادي عن شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان رحمه الله يقول ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم! وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني! وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب، وأسأل الله تعالى وأقول يا معلم إبراهيم فهمني! ويذكر قصة معاذ بن جبل رضي الله عنه، وقوله لمالك بن يخامر لما بكى عند موته وقال: إني لا أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللّذين كنت أتعلمهما منك! فقال: إن العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما

وجدهما، فاطلب العلم عند أربعة، فإن أعياك العلم عند هؤلاء فليس هو في الأرض، فاطلبه من معلم إبراهيم»[1].

عاشرًا: التدرج والتدريب على التدبر.

فقد يبدأ بتدبر آية، يحاول أن يقف معها، يتفهم دلالاتها، وينظر أين هو منها؟ ثم بعد الآية آيات، ثم سورة.. وهكذا، فالتدبر علم، والعلم يُبنى على التدرج من صغاره إلى كباره.

والتدرب على التدبر مهم جداً، وبخاصة إذا كان تحت إشراف معلم يحسن التدبر، فيعرض له ما توصل إليه في تدبره من المعاني، فيقوّم عمله ويصوّب استنباطه، حتى يكون من المتدبرين على أصول صحيحة معتبرة.

الحادي عشر: التدارس مع زملائه.

فتدارس القرآن مع الزملاء، وبحث الفوائد، وما خلص إليه المرء جراء التدبر، كتدارس العلم يُفَتِّح الآفاق، ويثري ملكة التدبر، ويصحح الخطأ، ولعل هذا يشهد له قوله ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السَّكِينة، وغَشيتهم الرَّحمة

(١) العقود الدرية ص٤٣.

وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1]، فالتدارس يختلف عن التلاوة ويشمل التفسير والتدبر، والحث عليه يُفهم من هذا الحديث ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ[2]، فتأمّل «فيدارسه القرآن».

فالمدارسة من أهم أسباب تنمية ملكة التدبر على أصول صحيحة، وقوتُها العلمية بقوة من تُدارسه، وآثارها العملية بحسب حاله، فالقرين يتأثر بالقرين ويقتدي به، فاختر الرفقة التي تعينك على مدارسة القرآن علماً وعقلاً، وتعينك على العمل به.

وإذا كانت تحت إشراف عالم ومتخصص فهذا أعظم أثرًا وأدق استنباطًا وتدبرًا.

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) صحيح البخاري (٥).

الثاني عشر: تسجيل ما يتوصل إليه من معاني تدبرية:

من المهم أن يسجل المتدبر ما يتوصل إليه من معان تدبرية وفتوحات ربانية، ثم بعد ذلك يراجعها، ويعرضها على أهل العلم والاختصاص، ويكرر المراجعة لها، ويضيف ويعدل حسب ما يظهر له من صواب وخطأ.

وإياك أن تفرط بما يسنح لك من معانٍ بديعة بحجة أنك لن تنساها، فكم ندم المفرطون، وفاز الموثقون، فقد كان البخاري رحمه الله تمر به الفائدة وهو في فراشه، فيوقد السراج ثم يقيدها، ثم يطفئ السراج، وهكذا حتى إنه يفعل ذلك أحيانًا في الليلة الواحدة قرابة عشرين مرة، وانظر ما فتح الله عليه من علم، ومن تأمل فقهه في تبويب صحيحه أدرك ذلك.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:(١)

العلم صيدٌ والكتابة قيده	قيّد صيودك بالحبال الواثقة
فمن الحماقة أن تصيد غزالة	وتتركها بين الخلائق طالقة

وقد ذكرت بعض الدراسات أن ما يتعلمه المرء يذهب منه أكثر من ٦٠٪ إذا لم يقيده أو يحفظه أو يعمل به.

(١) ديوان الإمام الشافعي: ص ٨٣.

سوانح وفتوحات:

مع أهمية السعي للتدبر والأخذ بالأسباب الموصلة إليه، فإن التدبر فتح من الله يتفاضل الناس في تحقيقه، قال سبحانه: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر]، والتدبر من أعظم الفتوحات والرحمات.

ولذا فكم يحاول المتدبر أن يُفتح عليه في آية ثم لا يتحقق له ذلك، وفي لحظة صفاء قلبي وتجلي إيماني أثناء استماعه لقارئ أو تلاوته لآية يفتح الله عليه بمعانٍ لم تتسنَّ له من قبل، فعليه المبادرة إلى تدوينها، فإن هذه السوانح قد تذهب كما أتت ويصعب تذكرها بعد ذلك.

وكلما كان القلب أكثر حضورًا عند تلاوة القرآن أو استماعه كانت الفتوحات أدقّ وأعظم، لذا أنزله الله على قلب محمد ﷺ لا على أذنه: ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧]، ولما جعله المنافقون على أطراف ألسنتهم ولم يتجاوز حناجرهم لم يفتح لهم به: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

موانع التدبر، وعلاجها:

موانع التدبر كثيرة، ومن أهمها:

أولاً: أمراضُ القلوب.

من الرّياء والحسد والغِلِّ والحقد وعدم توحيد الله والإخلاص له، ولهذه الأدواء أثر عظيم، يحجب القلب ويمنعه من التلذذ بالقرآن والتدبر لآياته، ومما يدل على هذا المعنى أنّ رسول الله ﷺ قد هيئ لتلقِّي القرآن الكريم، بأن استُخرج من صدره حظُّ الشَّيطان، وذلك كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه (١).

فالقلب كالإناء، فلا بد أن يكون مطهراً لقراءة القرآن ومهيأً له، فاستحضر هذا المعنى وانظر إذا شئت إلى حال المصلِّين خلف الإمام؛ فمنهم من يتفكر ويتدبر، ومنهم من يخضع ويخشع، ومنهم من يبكي، ومنهم من لا يدري ماذا قرأ، ومنهم والعياذ بالله من يضيق صدره بما يسمع، فاجتهد في إعداد الوعاء الّذي ستعي به هذا القرآن، ألا وهو قلبك، بأن يكون طاهراً

(١) صحيح مسلم (١/ ١٤٧) ح (١٦٢).

من الأرجاس والأدناس، وقد فُسر قوله تعالى: (وثيابك فطهر) [المدثر: ٤]؛ أي: قلبك[1].

ثانياً: الإعراض عن تلاوة القرآن.

فالتلاوة مفتاح التدبر ومقدمته، وهذا الإعراض قد يكون بسبب انشغال المرء بدنياه عن آخرته، وقد يكون بسبب انشغاله بشيء من أمور الآخرة كطلب العلم والدعوة إلى الله وغير ذلك، ومهما كانت الأسباب فلا شك أنَّ من أعرض عن تلاوة القرآن الكريم قد غبن نفسه وحرمها من خير كثير، ولا شك كذلك أنَّ إعراضه هذا استزلال من الشيطان له ببعض ما كسب، حتى وإن كان السبب هو الانشغال بالدعوة أو العلم، فإنَّ الشيطان إن عجز عن صرف العبد عن طاعة الله عز وجل بالكلية، صرفه عن فاضلها إلى مفضولها، ولا نعني بذلك أن طلب العلم والدعوة إلى الله مفضولة عن التلاوة في كل حال ووقت، ولكنها تكون كذلك في الوقت الذي ينبغي أن يكون لتلاوة القرآن الكريم مما لو تركه كان هاجرًا له، فلا بد أن يكون للمرء حزبه الذي يتعاهد فيه القرآن تلاوة وتدبراً، كما كانت حال سلف هذه الأمة،

(١) يُنظر: تفسير ابن كثير للآية ٨/ ٢٦٣، نقله عن سعيد بن جبير وغيره.

ثم إن من أجلِّ العلمِ العلمَ بكتاب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [فصلت]، وكيف تواصى هؤلاء فيما بينهم بعدم الاستماع له، بل والتشويش عليه وعدم تأمل ما فيه، فاستحقوا العذاب الشديد، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف]، وكيف جعل الرحمة بالقرآن للذين يؤمنون به، ثم انظر كيف علق تحقق الرحمة بنقيض فعل المشركين أي بالاستماع والإنصات، ثم تأمل كيف فرق بين الاستماع والإنصات، فالاستماع هو عدم الانشغال عنه بغيره أثناء القراءة، والإنصات هو التفكر والتدبر فيما يُقرأ، فإن حقق المؤمن ذلك تحققت الرحمة، ومن تحقّق الرحمة ما يُفتح فيه على العبد من تدبر.

وشبيه بهذا وعد النبي ﷺ بقوله: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

فلا بد أن يضم المؤمن إلى جانب إيمانه بالقرآن إقبالاً عليه بالتلاوة والاستماع والتدبر والتفكر والعمل والتحكيم والاستشفاء، أما أن يكتفي بأصل الإيمان به ثم يهجره كما هجر أهل الكتاب كتبهم، فأي خير يرجوه العبد من وراء ذلك؟

وتجاوز هذه العقبة يكون بتعريف الناس بما للتلاوة من فضل، ببيان ثوابها الذي أعدَّه الله تعالى للتَّالين كتابه، والترغيب في هذا الثواب، وأنه لا يعدله شيء من متاع الدنيا وزينتها، وكذلك بيان حال النبي ﷺ وأصحابه الكرام والصالحين من هذه الأمة عبر القرون مع القرآن شحذاً للهمم وتقوية للعزائم، وكذلك تبصير الأمة بمكايد الشيطان ليقدموا ما حقه أن يقدم ويؤخروا ما حقه أن يؤخر، والحكمة وضع الشيء في موضعه: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة].

(١) صحيح مسلم (٢٦٩٩).

ثالثاً: الانشغال بالتلاوة أو الحفظ عن التدبر.

بحيث يكونُ كلُّ همِّ الإنسان أن يستكثر من التلاوة أو الحفظ، دون أن يُلقي بالاً لتدبر ما يقرأ، وهو الأمر الملاحظ في جل حلقات التلاوة وتحفيظ القرآن المباركة، فالإقبال الكبير على التلاوة والحفظ لا يُقابله ذلك الاهتمام بالتدبر أو معرفة التفسير، حتى إنَّنا نجد من يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، لكنه لا يعرفُ معنى كلماتٍ في قصار السُّور، التي يبدأ عادة في تحفيظها للأطفال، وقد يكون الأنسب لصغار السن التركيز على الحفظ أكثر من التدبر؛ لأن قدراتهم في الحفظ أقوى من قدراتهم في التدبر، ذلك أن التدبر مكانه القلب، والقلب يمرّ بمراحل استواء حتى يبلغ الأشد، لكن هذا لا يعارض وضع برنامج للتدبر يناسب عقولهم ومداركهم، ويترقى تصاعديًا مع ترقي نضوج العقل واستوائه.

أما الاقتصار على مجرد الحفظ فقط فهذا خلل تربوي، ومما لوحظ في كثير من حلقات التحفيظ عدم العناية بالتدبر إطلاقًا.

وتجاوز هذه العقبة يتمثل في تعريف التالين بأهمية التدبر وحكمه، وقد مر معنا شيء من الكلام على أهميته، أما حكمه فقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوبه، قال الشَّوكانيُّ رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ

مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ [النساء]، قال: «دلت هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد] على وجوب التدبر للقرآن؛ ليعرف معناه»[1]، والذي يظهر أن التدبر درجات، فمنه الواجب، ومنه ما يندب إليه، كما أن التفسير درجات، فمنه ما لا يعلمه إلا العلماء، ومنه ما لا يعذر أحد بجهالته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ومما يُعين التَّالين على التدبر أن يتعرفوا على كلام السلف الصالح وذمهم الشديد لمن انشغل بالتلاوة عن التدبر، وقد مر في أثناء الرسالة ذكر شيء من ذلك[2].

رابعاً: الاستسلام للشبهات الحائلة دون تدبر القرآن، ومنها:

أ-دعوى أن فهم القرآن الكريم وتدبره، لا يقدر عليه كلُّ أحد.

من الشبه التي تحول دون تدبر القرآن، دعوى أن التدبر لا يقدر عليه إلا المتخصصون، ولا شكَّ أنَّ هذا تلبيس من الشيطان، إذ فيه حقٌّ وباطل، أما الباطل فهو أنَّ هذا ليس في كلِّ القرآن، فإن فيه ما هو واضح جليٌّ لكل أحد، ولو على سبيل الإجمال، كما قال الصنعاني: «فإن من قرع سمعه قوله

(١) فتح القدير: ١/ ٧٤١.

(٢) ص ٥٧، ٦٢ .

تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، يفهم معناه، دون أن يعرف أن (ما) كلمة شرط، و (تقدموا) مجزوم بها لأنه شرطها، و(تجدوه) مجزوم بها لأنه جزاؤها، ومثلها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ومثلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، يفهم الكل ما أريد منها من غير أن يعرف أسرار العلوم العربية، ودقائق القواعد الأصولية، ولذا ترى العامة يستفتون العالم ويفهمون كلامه وجوابه، وهو كلام غير معرب في الأغلب، بل تراهم يسمعون القرآن فيفهمون معناه ويبكون لقوارعه وما حواه، ولا يعرفون إعراباً ولا غيره مما سقناه! بل ربما كان موقع ما يسمعون في قلوبهم أعظم من موقعه في قلوب من حقق قواعد الاجتهاد، وبلغ غاية الذكاء والانتقاد، وهؤلاء العامة يحضرون الخطب في الجمع والأعياد ويذوقون الوعظ ويفهمونه، ويفتت منه الأكباد، وتدمع منه العيون، ويدركون من ذلك ما لا يدركه العلماء المحققون، ويسمعون أحاديث الترغيب والترهيب فيكثر منهم البكاء والنحيب (١).

(١) انظر إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد للصنعاني [ص ١٥٩].

أما الحق فإن هناك مما لا يدركه إلا العلماء كما بيّن ابن عباس وغيره في تقسيم فهم القرآن، مما سبق أن مرّ معنا.

ب- ما يدعيه بعض الناس من خطورة تدبر القرآن الكريم!

يقول الوزير العابد العادل ابن هبيرة الحنبلي رحمه الله: «من مكايد الشيطان: تنفيرُه عباد اللهّ من تدبر القرآن؛ لعلمه أنَّ الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورُّعاً»[1]، وبعضهم يعبر عن ذلك بقوله: «من تعمَّق كفر»، ولا شك أن هذه العبارة إن صدقت فإنما تصدق على من يتدبر مبتغياً معاني باطنيَّة لا يدلُّ عليها لفظ القرآن الكريم من قريب أو بعيد، كحال بعض الفرق الضالَّة وحال بعض الزنادقة ومثل هذا لا يسمى متدبراً لكتاب الله أصلاً! أما من يتدبر القرآن طالباً الهدى منه فحري به أن يرشد، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ»[2]، وهل أنزل القرآن إلاّ ليتدبر فكيف يضل قوم تدبروا ما أرسل الله به رسله إليهم! واتبعوا ظاهر

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١/ ١١١.

(٢) العقيدة الواسطية، انظر المجموع ٣/ ١٣٧.

ما جاءهم من ربهم الذي خاطبهم بما يعقلون، وأرشدهم إلى ما يمكنهم، ورجعوا إلى العلماء فيما لا يقدرون عليه.

ج- **ما يراه بعض الجهال بأن ما هم فيه من جهلٍ خيرٌ من معرفة ما خفي عليهم، مما يستلزم منهم العمل بما علموا**، ونسي هؤلاء أنَّ جهلهم بما يجب عليهم مع القدرة على التعلم يُوقعهم في الإثم، وأنَّ علمهم ومن ثم عملهم بما عملوا يقربهم من الله ويضاعف أجورهم ويرفعهم في الجنة درجات، فأنى يكون ما هم فيه خير! وإنما يعذر بالجهل من لم يقصر في التعلم، أما المقصر كالمعرض فهو مؤاخذ بجهله، محاسب على إعراضه، بل إن من أنواع الكفر الذي استشرى في أمم الأرض كفر الإعراض، وترك المرء الحقَّ لا يتعلمه ولا يعمل به، سواء كان قولاً أو عملاً أو اعتقاداً من ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ [الأحقاف]، فمن أعرض عما جاء به الرسول بالقول كمن قال لا أتبعه، أو بالفعل كمن أعرض وهرب من سماع الحق الذي جاء به، أو وضع أصبعيه في أذنيه حتى لا يسمع كقوم نوح، أو سمعه لكنه أعرض بقلبه عن الإيمان به، وبجوارحه عن العمل فقد كفرَ كُفْر إعراض، نعوذ بالله من كفر الإعراض، ومن

المعاصي الناشئة عن الإعراض ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه].

وهل ضلّ النصارى إلا بإعراضهم عن العلم الصحيح فعبدوا الله على جهل وضلالة، فوصفهم الله بالضالين، وأعرض الكفار عن سماع القرآن ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]، فكانت عاقبتهم ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فصلت].

وفي قصة الثلاثة الذين دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحدّث أصحابه، فأحدهم أعرض ولم يجلس يستمع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أعرض فأعرض الله عنه**»(١)، نعوذ بالله من حال الْمُعرضين.

(١) متفق عليه: البخاري (٤٧٤)، مسلم (٢١٧٦).

ثمرات التّدبّر وآثاره

للتدبر آثار عظيمة في العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة، ويصعب حصرها في هذا المختصر، ولقد ذكرت كثيرًا منها في أصل هذه الرسالة (أفلا يتدبرون القرآن)، وفصّلت في بعضها هناك، كأثر التدبر في نهضة الأمة، وأكتفي ببعض ما يناسب ذكره هنا، مع أنني أشرت إلى بعض الآثار في مقدمة هذه الرسالة، كتحقيق السعادة، وحلّ المشكلات، والخروج من الأزمات والمصائب، والاستشفاء بالتدبر.

وكثير من المسلمين حتى بعض الدعاة وطلبة العلم والمربين غافلون عن هذه الحقائق، ولم يدركوا أثر التدبر ومنزلته، لذا لا تجد منهم الاهتمام والعناية به في دروسهم ومواعظهم وكتبهم وتربيتهم لطلابهم، حتى إنك لتعجب من علماء ودعاة لهم مئات الدروس والمحاضرات، وربما آلاف التغريدات وعشرات المقالات، فلا تجد بضع تغريدات أو مقالات أو دروس في هذا الأمر العظيم، فأين هم من قوله سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] سدد الله خطانا وخطاهم لكل خير، ووفقنا لحسن القول والعمل، ووقانا شرّ الغفلة وآثارها.

أولاً: تدبر القرآن طريق العمل به.

العلاقة بين التلاوة -أو الاستماع- والتدبر والعمل علاقة وثيقة، فالتدبر مرحلة متوسطة بين التلاوة والعمل، لأنه لا يتم إلا بعد التلاوة في الغالب أو الاستماع في بعض الأحيان، والغاية من التدبر إنما هي العمل؛ عمل القلب: بالإيمان والمعرفة ولوازمهما من الخضوع والخشوع والتأثر، وعمل اللسان والجوارح: بإتيان أوامر الله ومحابه، واجتناب نواهيه ومساخطه، فتدبر القرآن هو أساس العمل به وتحكيمه وتعظيمه، ولا يمكن للأمة أن تعبر إلى تلك المراحل العملية من التطبيق والعمل والتحاكم وغيرها إلا عبر جسر التدبر، وقد فقه إخواننا الجن هذه الحقيقة كما في سورة الأحقاف ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فقد سعوا إلى سماع القرآن، ثم أنصتوا وتدبروا، ثم انطلقوا إلى قومهم داعين منذرين، وهكذا كان يفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما من تدبر آيات الكتاب ولم يعمل بها فقد جعلها حجة عليه والعياذ بالله، فلا يزداد بهذا التدبر إلا بعداً من الله، ووصف هذا الفعل من صاحبه بالتدبر محل نظر أصلاً، إذ التدبر ليس مجرد إعمال فكر في الآيات ومعرفة معانيها، بل كما نقلنا

عن السعدي رحمه الله: «التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك»[1]، فمن لم يأتِ بهذه اللوازم كان فعلُه هذا تأمُّلاً وتفكُّراً لكنه قصر عن حد التدبر، وأما من اكتفى بقراءته أو حفظ حروفه فحسب فهو أبعد من الأول عن التدبر، ولهذا -والله أعلم- قال الحسن البصري رحمه الله: «والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: قرأت القرآن كلَّه، ما يُرى له القرآنُ في خُلُق ولا عمل»[2].

وأما الاكتفاء بالتلاوة -وإن كانت مع نظر وتأمل- دون عمل فمصيبة عظيمة، وكسر لا ينجبر، وفيه تشبه باليهود الذين عابهم الله عز وجل، ومثّل لهم بأقبح مثال لما كانت هذه حالهم مع التوراة، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة]، قال ابن كثير: «يقول تعالى ذامّاً لليهود الذين أُعطوا التوراة وحُمِّلوها للعمل بها، فلم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما

(١) تفسير السعدي: ١٨٩, ١٩٠

(٢) تفسير ابن كثير: ٧/ ٦٤.

فيها، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه. وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه»(١).

وكذلك ذكر الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: ١٢١] قولين؛ الأول أن معناه: يتبعونه حق اتباعه، والثاني أن معناه: يقرؤونه حق قراءته، واختار رحمه الله الأول وقال: «لإجماع الحجة من أهل التأويل على أنَّ ذلك تأويله»(٢)، ولئن كان هذا في حقِّ أهل الكتاب، فأهل القرآن أحقُّ بذلك وأولى، وإلا كان ممن قال الله فيهم ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾ [البقرة]، "فهذه صفة من لا يفقه كلام الله ويعمل به، وإنما يقتصر على مجرد تلاوته. كما قال الحسن البصري: نزل القرآن ليُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملا" فاحذر أن تكون من هؤلاء، فهذا منهج المغضوب عليهم(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ١١٧.

(٢) تفسير الطبري ٢/ ٥٦٩.

(٣) مجموع الفتاوى: ٢٥/ ١٧٠.

ثانيا: أثر تدبر القرآن في بناء الفرد المسلم والجماعة.

يهتمُّ الإسلام ببناء الفرد المسلم اهتماماً كبيراً، ومن ثمّ يجعل من صلاحه قاعدةً لبناء الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، وأساساً لنهضة الأمة الإسلاميّة كلّها.

بل: إنّ تحكيم القرآن والسنة الّذي هو من أوجب الواجبات ، إنما يجب ابتداءً على الأفراد، وكثير من الناس يتصور بأنّه خاصّ بالدول، فيجب علينا أن نواجه أنفسنا: هل نحن نُحكّم القرآن في علاقاتنا مع ربّنا سبحانه وتعالى، مع أنفسنا، مع زوجاتنا، مع أولادنا في بيوتنا؟ أليس يوجد في بيوت بعض المسلمين ما يتعارض مع القرآن والسنة، من قنوات فضائية غير شرعيّة، وما إلى ذلك من وسائل الاتصال غير المنضبط؟ ويجب أن نتساءل عن علاقاتنا مع جيراننا، هل أدينا حقوق الجار؟ وفي علاقاتنا الاجتماعية عموماً، وفي علاقاتنا التجارية ومعاملاتنا؟ كلّ هذه الأمور يقع على عاتق الفرد المسلم مهمة إقامة حكم الله عزّ وجلّ فيها!

وممّا يؤكّد ذلك أنّ تدبُّر القرآن والعمل به، وهو الغاية العظمى من نزول القرآن كما رأينا، إنّما يقوم به الفرد المسلم، بصورةٍ جوهريّة، لا تقومُ به الجماعةُ، إلا من باب المدارسة والتّواصي بين أفرادها والتّعاون على البرّ

والتّقوى؛ وبناءً على ذلك فإنَّ ثمراتِ التّدبّر في القرآن وآثاره، إنّما تنعكسُ أساساً على حياة الفرد المسلم، ابتداءً من تقرّرها في قلبه، ثمّ انعكاسها على أخلاقه وسلوكه، وعلى وعيه وعقله ومعرفته، ومن ثمّ على واقع حياته، وعلى مصيره في الآخرة.

وإذا قام الفرد المسلم بالقرآن وانعكس على حاله، ثم تواصى بذلك مع إخوانه استقامت الجماعة المسلمة وصلح حالها وتأهلت للقيام برسالة ربها واستحقت وعده بالرفعة والتمكين.

ثالثاً: أثر تدبر القرآن على قلب المسلم.

أثر تدبر القرآن على المسلم يكون من خلال قلبه أولاً، ولذلك عاب الله تعالى على المنافقين فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد]، وما أجمل ما قاله الإمام البخاري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة]، حيث قال: «أي: لا يجدُ طعمَه ونفعَه إلا من آمن بالقرآن، ولا يحمله بحقه إلا الموقن»[1] ، ويشهد لذلك قول النبي ﷺ «ذاق

(١) صحيح البخاري: ٩/ ١٥٥، ك: التوحيد، باب: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [آل عمران]

طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبحمد رسولاً»[1] وقد شرحه ابنُ حجر بقوله: «وحاصل هذا التفسير أن معنى لا يمسّ القرآن: لا يجدُ طعمَه ونفعَه إلا من آمن به وأيقن بأنه من عند الله، فهو المطهّر من الكفر، ولا يحمله بحقه إلا المطهّر من الجهل والشك، لا الغافل عنه الذي لا يعمل فيكون كالحمار الذي يحمل ما لا يدريه»[2] فبمقدار طهارة قلب المؤمن يكونُ أثرُ القرآن عليه؛ «لأن الْمُؤْمِنُ إِذَا دَخَلَ قَلْبَهُ الْإِيمَانُ سَهَّلَ عَلَيْهِ طَاعَاتُ اللهِ تَعَالَى»[3].

وهذا معنىً تدبريٌّ بديع وجميل، وهو يُعطي تفسيراً لما نراه من عدم انتفاع كثيرٍ من الناس بالقرآن رغم قراءتهم له وتلاوته، فالإناء -وهو القلب- ينبغي أن يكون خالصاً ومطهراً ومُهيَّأً لقراءة القرآن.

رابعاً: أثر تدبر القرآن على خلق المسلم.

إذا طهر قلب المرء وتهيأ لتدبر القرآن انتفع به، وظهر أثره على خلقه ولذلك لما سُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خُلُق النبي ﷺ ، لم تُلقِ

(١) صحيح مسلم:١/ ٦٢، ح:٣٤.[آل عمران]

(٢) فتح الباري:١٣/ ٥٠٩.

(٣) نقله النووي في شرحه على مسلم عن القاضي عياض:(٢/ ٢).

محاضرة، ولا أسهبت وأطنبت، بل قالت بإيجاز: «كان خلقه القرآن!»[1]، إذن فخلقك أيّها الأخ الحبيب هو ثمرة لمعايشتك مع القرآن!

وهذا يقودنا إلى ثمرةٍ يانعة من ثمرات تدبّر القرآن، اقتطفها وعبّر عنها أحد الإخوة، وتتمثّل فيما لاحظه من أنّ القرآن الكريم، لدى قصص الأنبياء وسيرهم، يُسلّط الضوء خاصّة على صفات الأنبياء، ولا يقفُ عند برامج عملهم ومخطّطاتهم وأعمالهم ونتائج أعمالهم إلا قليلاً!

ومما يؤكد أثر تدبر القرآن على خلق المسلم قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ينبغي لحامل القُرآن أن يُعرف بليلهِ إذا النَّاس نائمون، وبنهاره إذا النَّاس مفطرون، وبحزنه إذا النَّاس يفرحون، وببكائهِ إذا النَّاس يضحكون، وبصمتهِ إذا النَّاس يخوضون، وبخشوعه إذا النَّاس يختالون»[2].

---

(١) صحيح مسلم (١٧٧٣).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٧٣٤)، والزهد لأبي داود (١٧٣)، والزهد لأحمد بن حنبل: ١/ ١٦٢.

وعن الفضيل بن عياض ﷺ قال: «حامل القُرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحقِّ القرآن»(١).

وهذه الصفات لا تتحقق إلا لمن أنصت وخشع وتدبر كلام الله، وانبعث من قلبه لا من لسانه.

وقد عقد أهل العلم فصولاً لبيان خلق المسلم في كتب السنن وغيرها، بل ألفوا في خصال أهل القرآن مؤلفات مستقلة، تناولت ما يجب أن يتخلَّقوا به، وما يلزمهم من الآداب عند القراءة، فمن ذلك: كتاب الآجُرِّي أخلاق حملة القرآن، وكتاب النووي التبيان في آداب حملة القرآن، وقد ألَّف المعاصرون كثيراً من الكتب بحثوا فيها شيئاً مما سبق، فألف د.محمد عبدالله دراز: من خلق القرآن، ووضع بعضهم موسوعة أخلاق القرآن، وألف آخر في أدب القرآن، إلى غير ذلك من المؤلفات التي أشارت لما يجب أن يتحلَّى به المسلم في تعامله أولاً مع كتاب الله تعالى، وإن تناولت ما حثَّ عليه كتاب الله تعالى من الأخلاق.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء:٨/ ٩٢، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٣٦٧).

خامساً: أثر تدبر القرآن في زيادة الإيمان، واليقينُ بأنّ القرآن تنزيل من لدن حكيم عليم.

إنَّ من أعظم فوائد تدبر القرآن الكريم وآثاره، يقينك وإدراكك العميق بأنّه كلام الله تعالى، خالق الإنسان والأكوان، يقول العلامة السَّعدي رحمه الله: «من فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصلُ العبدُ إلى درجة اليقين والعلم بأنَّه كلامُ الله، لأنَّه يراه يُصدِّقُ بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، فترى الحكم والقصَّة والإخبارات تُعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقةٌ متصادقة، لا ينقُض بعضها بعضاً، فبذلك يُعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء] أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً»(١).

ولا شكّ أنّ لهذه الحقيقة أثراً كبيراً، في إدراك المسلم لحقائق القرآن، وتدبّره فيها، بعدما تيقّن بأنّه كلام الله تعالى، ومن ثمّ: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعندئذٍ يُفتح له بابٌ كبير للمعرفة.

---

(١) تفسير السعدي ١/ ١٨٩.

وأيُّ ذكرٍ أعظمَ من كلام الله، إنَّ القلوب إذا فقُهت مراد الله تعالى من آياته؛ سار أصحابها إليه باطمئنان وثباتٍ لا تُزعزعهم بِدَعُ المحدثين ولا تأويلات الجاهلين ولا فتن المضلين.

سادسا: شحذ إرادة المسلم وهمّته إلى الاجتهاد في العمل الصالح.

ذلك أنّ معاني القرآن الكريم كما قال ابن القيم: (تُنهِض العبدَ إلى ربه بالوعد الجميل، وتُحذِّره وتُخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثُّه على التضمر والتخفُّف للقاء اليوم الثَّقيل، وتَهديه في ظُلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصدُّه عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النِّعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتُثبّت قلبه عن الزَّيغ والميل عن الحق والتحويل، وتُسهّل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته وونى في سيره: تقدم الركبُ وفاتك الدليلُ، فاللحاقَ اللحاقَ والرحيل الرحيل، وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو أو قاطع من قطاع الطريق

نادته: الحذرَ الحذرَ! فاعتصم بالله واستعن به وقل: حسبي الله ونعم الوكيل)(١).

سابعا: الثبات عند الفتن.

تدبر القرآن سبب لتسلية النفس وتثبيتها وبخاصة في الفتن، وحثها على الاقتداء بمن سبقها من أنبياء الله ورسله والصالحين من عباده، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

وتأمل قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان]، فالترتيل يقتضي التدبر آية بعد آية، بخلاف لو نزل جملة واحدة.

بل إننا عندما نقرأ هذه الآية في سورة الإسراء: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء]، فنتدبرها نقف خائفين وجلين من هذا التهديد المخيف ونحن نرى الميل من بعض المسلمين لأعداء الله والركون إليهم، بل إن بعض الدعاة قد يتساهل في أمر الولاء والبراء دون أن يدرك ما

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٥١.

في ذلك من ميل للكفار تحت تأويلات ومبررات تدل على هزيمة نفسية وضعف توكل واعتماد على الله.

فإذا كان هذا الجزاء الشديد للميل اليسير فكيف بالميل الكثير، وهنا ندرك أهمية الثبات، واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى خوفًا من الميل والزيغ، والآيات في كتاب الله تعالى تؤكد خطورة مثل ذلك: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

والخلاصة أن تدبر هذه الآيات والوقوف معها مما يقوي إيمان المسلم بربه، وبخاصة في الفتن التي تشتد فيها ضغوط الأعداء ومؤامراتهم، فما على المسلم إلا الثبات مقتديًا بمن سلف: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران].

ثامنًا: حسن الظن بالله تعالى، والثقة بوعده في التمكين.

من أعظم آثار التدبر لكلام الله تعالى هو ما سيجده التالي والمتدبر لهذا القرآن من آيات تبين أن العزة والقوة والتمكين لهذا الدين، مهما اشتدت الأزمات، وتوالت المصائب والكربات، كيف لا يتفاءل من يقرأ قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

[المنافقون]، وكيف ييأس من يتدبر دلالة هذه الوصية من نبي الله يعقوب عليه السلام لأبنائه ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف]، بل سيجد في سورتي براءة والصف هذه الآيات ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٣٢﴾ [التوبة]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف].

أما انتفاخ الباطل وانتصاره في بعض جولاته، فيدفعه قوله سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [الأنبياء].

ونجد التسلية والحقيقة الراسخة المطردة ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء].

والمهم هو العمل الجاد والتفاؤل الإيجابي والإيمان بوعد الله، وهنا لن يضرنا ما يفعله الأعداء ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝١٢٠﴾ [آل عمران]، أما دعوى وجود كيدهم ومؤامراتهم وأذاهم، فقد كشف عنها القرآن وبين علاجها ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ

أَشْرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران].

والسنة تؤكد هذا المستقبل وهذا التفاؤل كما في الحديث: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر، وكان تميم الداري يقول قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية»[1].

واقتران الفرج بالشدة واليسر بالعسر مطرد في القرآن، فمن تأمل تلك الآيات وتدبرها حق التدبر فلن يتسلل اليأس والقنوط إلى قلبه أبدًا، بل إن وجدت في نفسك شيئًا من ذلك فاعلم أنه لفراغ في القلب احتل الشيطان تلك المساحة، فبثّ فيها إرجافه وتخويفه ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران]، وإلا فالمؤمن الموقن بوعد الله تعالى لن تجد هذه الظنون والوساوس لها مكانًا في قلبه، تأمل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، وقال:" هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه" (٤/ ٤٧٧) ح(٦٢٣٨). ووافقه الذهبي.

ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران].

ولو لم يكن للتدبر إلا هذا الأثر من التفاؤل وقوة الإيمان وحسن الظن بالله، لكفى بذلك نجاة في الدنيا والآخرة.

أما المتشائمون والقانطون فسيجدون جزاء ظنهم السيء ﴿ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت].

الخاتمة

لقد تقرر مما سبق ذكره في هذه الرسالة أن سبيل الحياة الحقيقية الهانئة التي يرضاها الله تعالى هي في هذا الكتاب العزيز، فلا حياة بغيره ولا سعادة بسواه، فالعيش بغير القرآن منهاجاً هو الموت حقًا، لأن القرآن هو الروح التي متى افتقدها العبد فهو في عداد الأموات ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢].

ولقد عاش الرعيل الأول من هذه الأمة مع القرآن، فتحققت لهم تلك الحياة السعيدة التي وصفها الله تعالى في كتابه ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]، ولقد ذاق السلف طعم تلك الحياة وعرفوا مصدرها فوثّقوا علاقتهم به تدبراً وعملاً.

إن أمتنا اليوم تجرّب كل ما أنتجته أفكار العباد القاصرة من نظريات زُعم أنها تحقق السعادة وتجلب الرخاء والرغد، ولكن لم تجنِ الأمة من وراء تلكم النظريات الأرضية إلا الشقاء والمصائب، وما بقي لها إلا أن تقدم على الكتاب الذي ستسأل عنه يوم القيامة تدبراً وتطبيقاً وتحكيماً.

ولقد بدا واضحاً أن العز الذي كان ينعم فيه سلف هذه الأمة ما هو إلا نتيجة لتمسكهم بالقرآن وتعلقهم به وحياتهم معه وتدبّرهم له، وبذا حصل لهم الظفر على الأعداء، وتحولوا من رعاة للأغنام إلى هُداة للناس وقادة للشعوب والأمم، وما دام أن السبب في ذلك هو القرآن الذي بين أيدينا فما علينا إذا أردنا طريق العز والمجد والسؤدد إلا أن نسلك ذلك الطريق لتكون عاقبتنا كعاقبتهم ويحصل لنا ما حصل لهم، وما أوقع الأمة في هذه الهوة العظيمة إلا بعدها عن مصدر عزها وكرامتها، فقد أعزها الله بهذا الكتاب العزيز فلما ابتغت العزة في غيره أذلها الله.

كذلك يظهر مما سبق بيانه تهافت المتشائمين اليائسين الشاكين في أن يكون للقرآن ذلك الدور الكبير في تحوّل الأمة من الأزمة إلى النهضة، وتغيّر حالها مما هي فيه إلى الريادة والقيادة والتقدم.

إن الأمة عند رجوعها إلى القرآن لا ترجو بذلك مجد الدنيا وعزها فقط ولكنها تطيع بذلك ربها ونبيها ﷺ لتدخل جنة عرضها السموات والأرض، وما ذلك العز والمجد على طريق القرآن إلا عاجل البشرى في الدنيا، ولأجر الآخرة خير وأبقى.

إن من أهم مراحل تحكيم وتطبيق القرآن في سائر نواحي الحياة هي مرحلة التدبر والتعرف على معناه، ولقد عني السلف الصالح بهذه المرحلة عناية قصوى ليقينهم أن ما بعدها متوقف عليها، فلا سبيل إلى فهم القرآن ولا إلى تطبيقه إلا بتدبره والوقوف على معانيه، فإن الغاية من إنزال القرآن أبعد من مجرد التدبر، وكيف لمن وقف مع تلك المعاني والعظات الباهرات ألا يطبق ما حوت من أسباب سعادة الدنيا والآخرة.

إن مما زاد بلاء الأمة وبعدها عن كتاب ربها الآراء الضالة المضلة التي فسّر بها أهل البدع القرآن، فصرفوا الأمة إلى تلك البدع، وأبعدوها عن صافي عقيدتها وصحيح دينها، ولقد بذل السلف رحمهم الله الجهود العظيمة التي كشفت زيف تلك الأقوال وباطل تلك البدع، ولم يزل في هذه الأمة خلف عدول ينفون عن كتاب الله انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

وختاماً لم ينقطع الرجاء في الله تعالى، ولن ينقطع في أن يردّ الأمة إلى قرآنها رداً جميلاً، فتعز في الدنيا وتسعد في الآخرة، إنه نعم المولى ونعم النصير، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[يوسف]، والحمد لله أولاً وأخيراً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

فهرس الموضوعات